مهدي عيسى الصقر

بيت على نهر دجلة

رواية

اسم المؤلف : مهدي عيسى الصقر
عنوان الكتاب : بيت على نهر دجلة
الناشر : المدى
الطبعة الأولى ، سنة ٢٠٠٦

الحقوق محفوظة

Author : Mehdi Esa Alsaqr
Title : A House Near Tigris River
Al- Mada P.C.
First Edition : 2006

Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية- دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٧-٧٥٢٦١٦

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير

تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣

www.almadapaper.com

almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

مهدي عيسى الصقر

بيت على نهر دجلة

١
العذراء

"الهواجس، التي يأتي بها الليل تؤرقني! كل دقيقة، كل لحظة، أسائل نفسي - وأنا أتأمل وجهه الذاهل - إن كان سيشفى، في النهاية، أم يظل هكذا ضائعا، يتأرجح بين مشارف الوعي، ومتاهات الجنون!"

الشمعة، عافتها على عتبة باب غرفته، بعيدا عن متناول يده، تنشر بعضا من ضوئها الشاحب، على أرضية الصالة، وتكشف عن نقوش في البساط، وعن السيقان الدكناء للتختين الخشبيين، بالقرب من الجدران. ومثل كل ليلة جعلته يبتلع قرص المهدئ، ثم جلست على حافة سريره تستمع إلى هلوسته، حتى تمزقت حكاياه، وكف عن هذيانه الغريب، وأغمض عينيه، تحت نظراتها الساهمة. لم تغادره في الحال. ظلت تتأمل الجسد الناحل، والوجه الذي يشبه وجهها بوسامته الهادئة، وحزنه الخفي. أمامها كان يغفو كهل في الثلاثين، بالغضون اللعينة في وجهه ورقبته، وذلك الرماد المقيت في شعر رأسه وشاربيه.

"الله كم شاخ هذا الولد بسرعة!"

مدت يدها. سحبت الغطاء على الجسد النائم، ثم نهضت. نفخت على نار الشمعة، ووضعتها جانبا. تركت باب غرفته مفتوحا- فهو

يزداد اضطرابا في الأماكن المغلقة- وعادت إلى غرفتها. رأت زوجها ينام على ظهره، على جانبه من السرير، عيناه شاخصتان إلى سقف الغرفة، يحدق في شرود إلى أذرع المروحة الساكنة. حين اقتربت مال برأسه نحوها:

"هل نام أخيرا!؟"

"تركته مغمض العينين يتنفس بهدوء."

صعدت إلى الفراش بحركات متوجسة، محاذرة أن تقترب بجسدها من جسد زوجها، وضوء الفانوس يمسح بعضا من سواد الليل عن الجدران، وخزانة الثياب، وطاولة الزينة، والملابس المتدلية من أصابع المشجب في ركن الغرفة، وعن ستارة النافذة، والظلال تتراكم، بدرجات مختلفة من القتامة على السقف، وعلى البساط. ومرآة الزينة - المضاءة بشكل خافت- تعكس صورة الفانوس المنخفض الإنارة، الواقف على طاولة صغيرة بجوار السرير، وتكرر صورتهما، هي وزوجها، ينامان متباعدين، يغطي جسد كل واحد منهما شرشف منفصل، وبينهما يتمدد ذلك الدرب من الفراغ، ذلك الفاصل الذي تركته هي - منذ زواجهما قبل أسبوع - من أجل أن تبني جدارا بين رغبات الجسد؛ تحاول بذلك أن تهرب من حقيقة وجود رجل ينام معها على فراش واحد، فهي لا تستطيع- في هذا الوقت بالذات- أن تسمح لغرائزها بالسيطرة عليها، وابنها سعيد، الذي عاد اليها من العالم الآخر، بعد غياب طويل، لا يزال يتخبط في فوضى خيالاته، ورؤاه المضطربة، وولعه المجنون بإشعال النيران-هذا الإنسان الممسوس، الذي تصدر عنه إشارات تنذر بالخطر، مثل دقات رهيبة لقنبلة موقوتة تدنو من لحظة الانفجار!

نظرت إلى زوجها مستنجدة:

"ماجد، أنا خائفة!"

رنا إليها بعطف:

"لا موجب للخوف. كل شيء سوف ينصلح."

"تعتقد !؟ تعتقد أنه..!؟"

السكون شامل داخل الدار وخارجها، منذ بعض الوقت، والمدينة الكبيرة تمسك أنفاسها وتنتظر. وحين يأتي الليل تلفها الظلمة، مثل رداء سميك من القار السائل يغمر البيوت، والعمارات العالية، ونهر دجلة في جريانه المكتوم، والأشجار الواقفة بسكون، وأعمدة الكهرباء، التي لا ضوء فيها، والشوارع والدروب المهجورة. "وما عدت أسمع، وأنا أكابد الأرق في السرير، تلك الأصوات المتباينة والمتداخلة، التي كنت أسمعها عادة، في ساعات الليل؛ لا دوي سيارة تخطف مسرعة، في الشوارع القريبة، أو فوق الجسر الحديدي المجاور، لا وقع خطى في صمت الدروب، ولا غناء يرتفع، في هدأة الليل، لرجل يعود ثملا إلى بيته، في ساعة متأخرة؛ لا صوت مخلوق، ولا لغط آلة.. الكلاب الضالة، هي وحدها، التي تهيمن على ليل المدينة، نباحها اللجوج يملأ الهواء بين وقت وآخر! لعل هذه الكلاب,الملعونة الوالدين ترى أشباحا وخيالات مبهمة، تلوح وتختفي في ظلام الدروب، أو لعل ما يثير جنونها، ويجعلها تطلق نباحها المستوحش، على هذا النحو المثير للأعصاب، هو صوت الرصاص يتفجر، أحيانا، صاخبا ومباغتا، في أماكن مجهولة من المدينة الحائرة، والمنكمشة على نفسها. وفي هذه الأثناء يزداد مرض ابني سوءا يوما بعد يوم!". رنت إلى رأس زوجها، المستقر في منخفض الوسادة. عاد يحدق

إلى السقف ساهما. لعله يستعرض، بين تراكمات الظلال على السقف، مشاهد من حياته الخاصة، التي مزقتها الحرب- ليست هذه الحرب القصيرة التي انتهت، قبل أشهر، بل تلك الحرب الطويلة التي سبقتها. أحس بنظراتها المتقصية تلامس جانب وجهه فنظر إليها:

"ألم تنامي بعد!"

"بماذا كنت تفكر أنت!؟"

"خواطر تجيء وتروح!"

هذا المحامي القادم من الجنوب، والذي تعرفت عليه بالمصادفة، بعد منتصف إحدى الليالي، لا يريد أن يشغلها بأحزانه. ربما انشغالها عنه بمرض ابنها هو السبب. ولكن ماذا بوسعها أن تفعل!؟ سألها:

"وأنت ما الذي يشغل بالك الآن!؟"

"وهل عندي أنا هم آخر!؟ واحدة من محاولاته يحرق بها البيت، ويحرق نفسه!"

قال لها:

"لنر ما يقوله الطبيب."

"وتجيء معنا ؟"

"أنت تعرفين أنه ينفر مني لأنني تزوجتك!"

قالت تسترضيه:

"سوف يعتاد عليك مع الوقت."

"ربما !"

لمحت يده الناحلة السمراء تخرج، من تحت الغطاء الأبيض المتهافت على جسده، ثم تمتد لتخترق جدارها الوهمي، الذي أقامته بين

الجسدين، وتتسلل بعد ذلك تحت قماش غطائها، تتحسس الفراش، حتى تعثر على يدها المطروحة بجوارها، فتمسك بها متلهفة.

أحست بدفء يده، وبالضغط المترفق لأصابعه، فاستكانت يدها للضغط العطوف.

غير أنها بعد برهة من الزمن، مرت بسرعة عجيبة، وهي تشعر ملتذة بذلك التواصل الصامت بالأيدي، داخلها الخوف من أن تنقلب مشاعر الألفة والود بينهما -إذا امتدت اللحظات- إلى أحاسيس شهوانية مستعرة يتعذر السيطرة عليها، فيعبر زوجها، عندئذ، بجسده المستثار، ويخونها جسدها المتخاذل، فتستسلم سريعا لانفجار غرائزها المكبوتة منذ سنين. "فانتزعت يدي من بين أصابعه وأنا أتجنب النظرإلى عينيه. لم يقل شيئا. هو وافق ألا يأخذني حتى يشفى ابني. سمعته يتنهد، وهو يسترجع يده المخذولة، من تحت غطائي. وبدا السكون شديد الوطأة. ومن مكان بعيد حمل الهواء إلينا صوت زخات من الرصاص تطلقها أياد مجهولة، على أهداف غامضة، فهبت الكلاب المتشردة تنبح بجنون!"

٢

هذا صوتها نعم صوتها هي والآن هذا صوت الرجل يرد عليها ومرة أخرى تتكلم أمه تقول انها خائفة تند عنه ضحكة يخنقها بكفه ويكركر بلا صوت يده تغطي فمه وأذنه على خشب الباب الموصد واقفا بثياب النوم في ظلمة الصالة وشعر البساط الخشن يوخز لحم قدميه الحافيتين ووراءه وعلى جانبيه ينتظر الليل في حين تتحاور الأصوات داخل الحجرة يحني جذعه ويترك أذنه تصغي وتصغي وتصغي إلى ما يدور بينهما من كلام وهما يرقدان على السرير أمه تظنه نائما الآن بعد أن ابتلع ذلك القرص الأبيض يضحك تحت غطاء يده واليد الأخرى تتحسس الخشب البارد المصقول في حركة دائرية حركة بطيئة وحذرة وأمه خائفة تقول للرجل واحدة من محاولاته واحدة من محاولاته المجنونة واحدة من محاولاته يحرق بها البيت ويحرق نفسه يضحك يده على فمه هي لا تدري انه يقف وراء الباب يتجسس عليهما في الليل في مرات سابقة حاول أن يخترق عتمة غرفة نومهما ليرى ما يفعلان على الفراش مد بصره من ثقب المفتاح إلا أنه لم يلمح غير جانب صغير من الستارة المسدلة على النافذة في مواجهة الباب وشريط مستطيل من خليط من الخشب والقماش عند نهاية السرير في إحدى المرات رأى قدما واحدة

انحسر عنها طرف الغطاء فبانت أصابعها منتصبة في الهواء عرف فيها قدم الرجل الدخيل الذي التقطته أمه من الشارع وأدخلته غرفة نومها يدهمه الغضب يتوقف عن الضحك المكتوم ويدع يده تسقط عن فمه يخطر له أن يقتحم عليهما الغرفة ينقض على الرجل يجره من على السرير وبعد ذلك يحمله إلى خارج البيت ويرمي به في نهر دجلة حتى يغرق ويبقبق الماء فوقه ثم تجيء الأسماك تنهش لحم وجهه المخادع يريدها تأخذني الى الطبيب كأنني مجنون لكنني لست مجنونا أنا فقط قطعت الحبل مع القافلة مع ذلك سوف أجاريهما وأذهب من أجل أمي هي تظن أنني مخبول لأنني أحب إشعال النيران سوف أذهب وسيقول لي الطبيب تكلم أيها البطل قل لي ما الذي يضايقك في هذه الدنيا حدثني عما شاهدته في المهرجان الكبير ودعني أنا أستكشف العلة وسوف أضحك وأنظر الى وجهه وبعد ذلك أقول له أعذرني دكتور فأنا لا أستطيع أن أبوح لك بشيء فلو أن جنابك سألتني وأنا لا أزال على قيد الحياة كنت حكيت لك الحكاية من أولها الى آخرها لكنني الآن ميت ومثل أي ميت تركت ذاكرتي ورائي وما عادت خناجرها تمزقني فلا تتعب نفسك معي يا طبيب النفوس المريضة لا تتعب نفسك نعم سوف أقول له مثل هذا الكلام وأنظر الى وجهه الخائب وأضحك مثلما يضحك أصحابي الموتى أكشر عن أسناني وأجعلها تقرقع هكذا اك اك اك اك والآن لأواصل الإصغاء إلى ما يقولان وراء الباب ولكن الصمت ينام معهما على السرير منذ دهر من الزمن لماذا لا يتكلمان أم تراها رضخت له أخيرا وتركته يفعل بها ذلك الشيء الشنيع لا هاهما يتكلمان مرة أخرى يتكلمان يتناهى إليه صوت أمه تقول وتلك الزانية ذهبت تنام تحت

رجل آخر صوت أمه يشتعل لا تتفوهي بمثل هذه الكلمات صوت الرجل يعاتبها قل لي إذن أليس ما فعلته زنى امرأة تضاجع رجلا آخر وهي ما تزال على ذمة زوجها وصوت الرجل يقول أنت تعرفين جيدا أنها تزوجت مرة ثانية حسب الأصول وأحكام الشريعة ويعلو صوت أمه ثائرا وزوجها مازال حيا يقول لها الغريب هي ما كانت تعرف أنت نفسك ما كنت تعرفين ولما عرفت العاهرة أما كان من واجبها أن صوت أمه يرتجف مثل السعفة في الريح والرجل الغريب يقول بعد أن أنجبت من الرجل الآخر وأمه ترد بسرعة تعوف لذلك النذل النغل الذي أنجبته منه وتمر لحظة صمت طويلة ثم يقول الصوت الخشن أنا لا أفهم لماذا تصرين أنت على تعذيب نفسك بهذا الكلام أرجوك ألا تفكري بهذا مرة أخرى المرأة تعيش الآن مع زوجها وفق عقد زواج جديد بعد أن أنهيت أنا طلاقها من أخيك في المحكمة ذلك الوضع الشاذ انتهى خلاص والولدان هل نترك لها الولدين لا طبعا ولكن ما جدوى أن نأخذهما منها الآن وهو وترد أمه سوف أربيهما أنا مثلما ربيت أباهما وعمهما من قبل فيض من الحنان في صوت أمه والدخيل الملعون يقول لها وهل نذرت نفسك أما للعالمين ماجد لو كنت شفتهما عندما جاءت بهما إلى هنا اليوم لو كنت شفتهما صوت أمه مبتهج وفخور سمعها تقول أخذتهما بين أحضاني وقبلتهما ثم أمسكت بهما ومشينا إليه أنا في الوسط مشينا إليه ثلاثتنا وهو يجلس وحده صامتا يجلس في منتصف التخت في الصالة ينظر أمامه في شرود لم يكن ينظر إلينا ولم يكن ينظر إليها في جلستها المسترخية على التخت المقابل ولا إلى النذل الذي بقي واقفا يحمل ابن السفاح على زنده ما كان ينظرإلى أحد وماذا حصل بعد ذلك الولد الكبير نفر من أبيه

عندما أوشكنا أن نصل إليه فهو لا يتذكره كان في الثالثة عندما ذهب أفلت يده من قبضتي وركض عائدا اليها الصغير بقي حائرا وضعت يدي على ظهره ودفعته برفق وقلت أشجعه تقدم لا تخف فهذا أبوك إلا أنه بدا مرتبكا وجلا وقف أخيرا بين ساقي أبيه واستدار برأسه ينظر إلى وجهي بضراعة كي أخلصه من تلك الورطة تصور ماجد تصور في صوت أمه دموع والرجل يقول شيئا وصوت أمه المبلل بالدموع يقول لا هو لم يفعل شيئا ظل على جلسته الساكنة على التخت يحدق في الفراغ أمامه بدون أن تختلج عضلة واحدة في وجهه ولا عضلة واحدة لا صوت من الرجل ثم يتفجر صوتها الذي يحبه وهي غاضبة هو كان على وشك الشفاء كان على وشك الشفاء من الحالة التي عاد بها من هناك لو لم ويعقب ثورة أمه سكون صمت طويل بطول الليل بعد ذلك يأتي صوت أمه متعبا بحاجة إلى شيء يستند إليه حتى لا يسقط على الأرض ويتفتت لمحتها تبتسم منتصرة عندما رأت الولدين ينفران من أبيهما الكلبة تخاف أن نأخذهما منها إذا تعلقا به لم أحتمل رؤيتها تبتسم فطردتها من البيت صرخت بكل ما خطر على بالي من شتائم وطردتها وكان الكلب الذي جاء معها قد غادر البيت ولكن أنت بهذه الطريقة أعرف قلت لك لم أحتمل جاءت لابسة أحسن ما تملك من ثياب محملة بالذهب وصابغة وجهها مثل مومس وذلك الرجل الذي ولكن صوت الرجل الدخيل يقاطع أمه ساهرة أرجوك لا تكرري يسمع أمه تقول وذلك النذل الذي تجرأ على الدخول إلى بيتي بكل وقاحة وقف نافشا ريشه مسدسه يتهدل على ردفه يحمل نغله منها على ذراع ويلعب بيده الأخرى بمفتاح السيارة التي أخذتها الفاجرة ثمنا عن دم ابني ولكن أخاك لم يمت

ولا هو يعيش أيضا لا يعيش والصوت الخشن يقول المهم الآن غير أن صوت أمه يعترض الصوت الغريب معها على السرير شعرت أنهما جاءا يتشفيان بنا كان ينبغي أن تفكري بمشاعر الصغيرين.

نعم كان ينبغي أن أفكر بهما صوت أمه يقول في استسلام حزين لا أستطيع أن أنسى الانطباع الذاهل على وجهيهما وهما يتعثران وراءها عندما غادرت البيت زعلانة لم تعجبه رنة الاستسلام في صوت أمه وكاد يضرب على خشب الباب في حنق لا تعجبه رنة الاستسلام تذكره بأيام المهانة وصوت أمه الحزين يقول تصور ماجد في الوقت الذي كنت فيه أشتعل مثل جهنم كان هو يضحك أفاق من شروده على صياحي وراح يضحك مستلقيا على البساط بين التختين قريبا من قدميها ولا يسمع صوتا داخل الحجرة لبعض الوقت والصمت يلفه من كل الجوانب ثم يتسلل إليه ذلك الصوت الدخيل عبر شقوق الباب يقول لا أظنها تأتي بهما مرة ثانية أنت تعرف كيف تقنعها فعلاقتك بها جيدة منذ أكملت لها معاملة طلاقها اذهب إليها صوت أمه يتوسل اطلب إليها أن تأتي بالولدين وحدها لا أريد ذلك الكلب الذي يعاشرها يدخل بيتنا مرة أخرى أعصابي تشتعل ودمي يفور لما أشوفه وأتذكر كيف كان يرسم عليها لإغوائها عندما كنا نذهب معا إلى مركز استلام جثث القتلى نسأل عنه سوف أحكي لك كل شيء في ما بعد ينتظر وصول صوت الرجل من وراء الباب ويجيء الصوت يلوح عليه النعاس يقول طيب سأحاول والآن حاولي أن تنامي أو تفكري بشيء آخر دقائق طويلة يظل واقفا وراء الباب إلا أن الصوتين يسكتان الرجل الغريب ينصحها أن تفكر في شيء آخر يحاول أن يجعلها تفكر به هو وهي لا تفكر فيه أمه

غاضبة لأن المرأة التي تقول عنها إنها زوجتي تنام مع رجل يزني بها وعنده مسدس ويلعب بمفتاح سيارة تقول أمي إنها ثمن دمي لكنني لا أتذكر أنني بعت دمي لأحد يمر أنامله برفق على الباب حتى لا تسمع أمه صراخ الخشب وتعرف أنه يتجسس عليهما من وراء الباب كل ليلة وهذا الصراخ الذي يصدر عن خشب السرير كم هو بشع لكنهما لا يفعلان شيئا وصراخ الخشب يسكت بسرعة ومثل كل مرة بعد حوارهما الذي يجري على هذا الشكل كل ليلة تقريبا كل ليلة وهما يتحدثان عنه يأتي الصمت في النهاية ويتسلق السرير لينام بينهما حتى الصباح فيطمئن عندئذ إلى أن أمه ساهرة بقيت بنتا عذراء لم تفتض بكارتها ويجعل يده تفارق خشب الباب ويبتعد ماشيا في ظلام الصالة ليأخذ مكانه في نهاية طابور الأسرى كي يدخل إلى المراحيض ويتبول قبل أن يأوي إلى فراشه الطابور طويل هذه الليلة تأخر في المجيء يلتفت إليه الأسير المنتظر أمامه لم أشاهدك في طابور الصباح هذا اليوم أنا لا أقف في الطابور دائما كيف هذا كل إنسان يأكل ويشرب لابد أن يتردد على المرحاض لكنني لا أفعل مثل كل إنسان أنا أبل ريقي بقطرات من الماء حين أعطش وأتناول القليل من الطعام عندما أجوع وهكذا يتأمله الرجل الواقف أمامه باهتمام ويقول له هذه فكرة جيدة والله أنا سوف أفعل مثلك فالانتظار في الطوابير عذاب انتبه أنهم يتقدمون واحد من الأسرى يغادر مجموعة المراحيض حاملا زجاجته الفارغة في إحدى يديه وتدب على الفور حركة متعجلة في صف الرجال الطويل حركة تنطلق مثل موجة تؤرجح الهياكل المنتظرة الواحد وراء الآخر إذ يخطو كل أسير خطوة واحدة إلى الأمام ويعلو صوت احتكاك عشرات النعل البلاستيكية

والأحذية على أرضية الفناء ولكن ليس دفعة واحدة إنما بالتتابع فالصوت يتحرك أيضا مع حركة الأجساد المتأرجحة وحين يبلغه رأس الموجة ولغطها تتكشف أمامه مساحة صغيرة عارية من الأرض عفرتها الأقدام في دبيبها المستمر فيتقدم هو أيضا خطوة واحدة ويسد بقامته الفراغ الذي انفتح أمامه ولا يتكلم أحد في هذه الأثناء الطابور الطويل بأكمله يتقدم بدون كلام وبعد ذلك يستقر في مكانه ويعود الرجال لمواصلة الانتظار في استسلام مطلق وكل واحد منهم يحدق ساهما في طرف نعله أو حذائه أو في الشعر الذي يغطي رقبة الرجل الواقف في الصف أمامه وتلفهم جميعا رائحة الإفرازات المنتشرة في هواء القفص الكبير يرفع يده ويمس بأصابعه كتف الأسير الذي تكلم معه قبل قليل معك علبة ثقاب معك أنت سيجارة لا إذن ليس معي علبة ثقاب يرفع رأسه ويصيح في الهياكل المنتظرة يا جماعة هل مع أحدكم علبة ثقاب أريد أشعل نارا كبيرة!

*

تهتف وهي تهب جزعة:

"سمعت صوته !؟"

يفتح زوجها عينيه:

"سمعت!"

تزفر في يأس:

"خرج مرة أخرى يقف في طابوره الوهمي!"

يقول لها زوجها:

"المهم أنك أخفيت عنه كل علب الثقاب!"

ترد متشكية:

"ولكنه لا ينام!"

"وهل ننام نحن!"

"اسمح لي لحظة! أروح أشوفه!"

لا تستطيع أن تترك ابنها أرقا يحاور أشباح رفاق الأسر طوال الليل! تزيح الغطاء عن جسدها، وتنسل نازلة من السرير. ترفع ذبالة الفانوس فتتساقط الظلال عن مساحات أخرى من الجدران وقطع الأثاث. تقول معتذرة:

"لن أتأخر!"

تحمل الفانوس فيتأرجح الضوء على رأسه الملقى على الوسادة.

يبدو مستسلما، صابرا، وهو يرنو اليها تتحرك متعجلة، تفتح الباب وتغادر الغرفة، يرافقها

الضوء من جانب والظلال من جانب آخر!

*

ينزلق الضوء الأصفر الرجراج على الأرض، ويتراقص على الجدران، وتتمدد ظلال

أصابع المروحة على السقف، وحين توصد عليه الباب وتذهب تطبق عليه العتمة. يبقى وحده على السرير، بعد أن حل الفراغ في المكان الذي كانت تنام فيه، قبل لحظات. يمد يده يتحسس مكانها الخالي، يشعر بالدفء الذي خلفه جسدها وراءه، يسري في لحم يده. يترك راحته تتجول فوق مساحة الدفء الذي كان يتبدد شيئا فشيئا. كان مثل دخيل يحوم حول بستان محرم، في غفلة من العيون. جسدها لا يزال فتيا،

برغم الشيب الذي زحف على خصلات من شعرها الأسود، والذي ترفض أن تصبغه، كما تفعل من في سنها "ليس الآن.ليس الآن!" أم نادرة هذه العذراء التي لم تمس! إلا أنها لم تتعلم بعد كيف تكون زوجة. ولكن كيف رضي هو بشرطها الغريب!؟ شرطها المنافي لقانون الناس والطبيعة!؟ يبرد الفراش أخيرا فيسحب يده. ينفض عن جسده الغطاء، ويجلس في السرير، وسط الظلمة والصمت. يتحسس بيده سطح الطاولة الصغيرة المجاورة للسرير تصطدم أصابعه بقاعدة المصباح المنضدي، الذي لا تيار فيه، ثم تعثرعلى علبة سيجائره. يخرج علبة الثقاب المخبأة تحت وسادته، ويشعل عودا فيشتعل وجهه في مرآة الزينة. يجده هزيلا ومرهقا. يوقد طرف سيجارته ويطفىء العود فينطفىء وجهه في المرآة. يخفي علبة الثقاب، ويغادر السرير. يمشي صوب النافذة. يزيح جانبا من الستارة فيتدفق الهواء القادم من جهة دجلة، ويغمر وجهه وصدره، ويبدد دخان سيجارته. يحس بالهواء يهب معتدلا مع شيء من البرودة. ويرى الليل في الخارج شديد السواد، والجانب الآخر من المدينة، فيما وراء النهر، ليس سوى خط من جدران قاتمة، بارتفاعات مختلفة، تتخللها ملامح أشجار سود، تقف بلا حراك، مثل نصب الموتى. على يسار النافذة يلوح قوس الجسر الحديدي، بقوائمه وأضلاعه المتقاطعة، يطفو في الهواء المعتم، فوق مجرى النهر وسط ما يشبه الضباب، كأن طرفه البعيد لا يلامس الأرض، بل يتلاشى في الفراغ، في حين يبدو نهر دجلة مثل خندق عريض يجري فيه سائل لا يرى، لاندماجه بسواد الليل، والسماء مكفهرة تغطيها السحب، أو لعل ما يغطيها هو دخان حرائق هائلة، تحمله الريح من أماكن بعيدة، وتنشره فوق سطوح المنازل، وجدران

العمارات، وبساتين النخيل، والشوارع والدروب المقفرة، وليس هناك نجمة واحدة فالسماء مغلقة، والمدينة-بأطرافها المترامية في كل جانب- خامدة تماما، مثل مدينة أثرية مات أهلها منذ زمن بعيد، ولم يتبق منها غير هياكل عظمية، مدفونة تحت أنقاض الجدران والسقوف المنهارة. يظل يقف في مكانه، أمام النافذة المطلة على النهر والليل، يدخن في شرود وينتظر عودتها. تقارب سيجارته أن تحترق كلها حين يسمع صوت الباب ينفتح وراء ظهره. يلتفت ليراها تغلق الباب، وتتقدم يسبقها ضوء الفانوس، الذي راح يتأرجح على البساط، وعلى الجدران وقطع الأثاث. يرى الضوء ينير ثوب نومها الأبيض الطويل، ويحدد ملامح فخذيها، بسبب تراكم الظلال بينهما وهي تمشي. تعيد الفانوس إلى مكانه فتجمد الظلال وتسكن بقع الضوء. تجيء بعد ذلك وتقف بجواره عند النافذة. ينظر إلى وجهها:

"كيف هو الآن!؟"

"أقنعته بدخول المرافق. رفض في البداية. قال انه لا يريد أن يأخذ دور أسير آخر، فقلت له إنهم دخلوا كلهم، وانصرفوا لينامو ا، فوافق عندئذ. بعد ذك أخذته إلى فراشه"

"وهل غفا؟"

"رأيته يغمض عينيه. لم أشأ أن أعطيه قرص مهدئ آخر، فهذه الأقراص تسبب له وجعا في الرأس!"

يقفان صامتين. ثم يتنحى بجسده قليلا، من أجل أن يفسح لها المجال، لترى الخارج جيدا.

يقول لها:

"انظري إلى المدينة كيف غدت!"

لا تقول شيئا.. تنظر أمامها واجمة. يرفع يده ليأخذ نفسا أخيرا من سيجارته فيمس ساعده، بدون قصد، حافة نهدها، الذي يرتج قليلا. فتجفل وتنأى بجسدها عنه سريعا. لا يتكلم، إنما ينفخ دخان سيجارته، فيما يشبه تنهيدة طويلة. تقول بصوت منكسر:

"ماجد، أنا آسفة! أنت تزوجت امرأة لا مزاج عندها لرغبات الجسد!"

يقول لها:

"سوف أصبر حتى يشفى أخوك."

"أتظنه يشفى حقا!؟"

"نحن نفعل ما بوسعنا."

ترك مصراع النافذة مفتوحا ,غير أنه أغلق الستارة. قادها من يدها إلى الفراش. افترقا عند بلوغهما السرير. ذهب هو صوب جانبه من الفراش. أطفأ عقب سيجارته في المنفضة على الطاولة، في حين مشت هي إلى الجانب الآخر. أنزلت ذبالة الفانوس، وصعدا إلى السرير، في بقايا الضوء الخافت.

٣

جلسا بين صفوف المرضى. هي كانت تنتظر. أما هو فما كان ينتظر شيئا. قالت له نذهب إلى الطبيب فأطاعها؛ هو يطيعها حتى لا تزعل عليه. ولكن ماذا تقول تلك الرقعة!؟ "وجدت عدد المرضى كبيرا. بعضهم جاء لمراجعة زوجة الطبيب، الأخصائية في المجاري البولية. رأيت ابني يحدق باهتمام إلى الرقعة فوق باب الطبيبة، ثم استدار بوجهه وسألني:

"هل عندهم هنا أدوات احتياطية؟ سألته "ماذا تقصد يا ولدي!؟" قال "أقصد أعضاء تناسلية، مثانات جديدة. أنا أحتاج مثانة!" نظرت محرجة إلى وجوه المرضى القريبين. سألتني امرأة عريضة جلست بجواري، وجهها المترقب يبتسم: "هذا زوجك؟" قلت لها "لا هذا ابني." قالت مندهشة "كبير ما شاء الله! هل عندك غيره؟" لم أجبها. غير أنها لم تشأ أن تصمت. سألتني "عندك أولاد غيره، الله يخليه؟" قلت لها عندي ابن آخر. قالت "أصغر طبعا". قلت لها "لا، أكبر!" هتفت غير مصدقة "مستحيل! أنت تمزحين معي أكيد! كم عمرك الآن؟" قلت وأنا أحدق في عينيها "أنا دخلت القرن الرابع من عمري قبل شهر!" تأملتني في توجس، ثم سارعت بالنهوض. لكنني أمسكت بذراعها. "قولي لي قبل أن تنصرفي، عندك أنت أولاد؟" "عندي أربعة." كان صوتها

يرتجف، وهي تحاول أن تخلص ذراعها من قبضتي. قلت لها "أنصحك أن تعيديهم إلى داخل رحمك فورا، وأن تغلقيه عليهم بالشمع الأحمر، حتى لا يأخذونهم منك. ولا تدعي أحدا منهم يخرج. .ليس الآن!" وبعد أن نصحتها أطلقت ذراعها، فانصرفت تتعثر بأقدام المرضى! البلهاء ظنتني مجنونة! أحسن. التظاهر بالجنون هو خير وسيلة لدفع الأذى، في هذا الزمن. وخطرت على بالي فكرة بعثت في نفسي شيئا من الأمل.

أترى ابني يتظاهر بالجنون، من أجل أن يحمي نفسه!؟ التفت أنظر إليه. وجدت في عينيه رجاء. سألته إن كان يريد شيئا. قال "أريد أن أختبئ!" "تختبئ!؟" "نعم. أدخليني إلى رحمك!" طلبت منه السكوت. تضرع لي بصوت خفيض "خبئيني داخل رحمك وأقفليه علي بالشمع الأحمر!" وددت لو كان بمقدور النساء أن يعدن أبناءهن إلى أرحامهن في ساعات المحنة! نظرت إلى وجهه المتضرع مخذولة. "لا فائدة الآن، لا فائدة حتى إذا كان ذلك ممكنا!" أرغمت نفسي على الابتسام قلت له "أنت رجل والرجال لا يختبئون! انظر إلى الدنيا يا ولدي وسوف تجد..!" قاطعني "ماذا أجد، يا أمي!؟" وما كنت أمتلك جوابا!

"السيد سعيد المطلوب!"

ارتفع صوت السكرتير ينادي فوق الوجوه القانطة بعد أن خرج أحد المرضى من غرفة الطبيب. فأمسكت بذراع ابني.

"لندخل! جاء دورنا!"

٤

وجوه المرضى تتعلق به وهو ينهض ثم تتساقط عندما يدير إليها ظهره ويمشي مبتعدا مع أمه. يدنوان من باب أبيض موصد. يتوقف ويتشبث بيدها "لن أدخل!" تقول له "بعد أن جئنا كل هذا الطريق!" لا يتحرك من مكانه" ,أخاف!". تجره من يده. "لا تخف لن يؤذيك أحد في هذا المكان. هذه غرفة الطبيب". يدها الدافئة اللينة التي يعرفها تجر يده الباردة ويتقدمان وهي لا تفلت يده أصابع يدها الأخرى تضرب على الباب والخشب يصيح. تفتح أمه الباب بعد ذلك ويدخلان في ضوء الشموع. "أهلا!" صوت خشن يصدرعن وجه منتفخ مستدير يحمل عوينات طبية فوقه صلعة نظيفة تلونها الأضواء والظلال وتتناثر بعد ذلك الكلمات من حوله في أرجاء الغرفة كلمات أمه وكلمات الرجل الجالس بين الشموع تتداخل وتتقاطع كأنها تتعارك اخرجي أنت واتركيني وحدي معه دكتور أحب أعرف ما هي أعرف زوجك كلمني هل قال لك انه أرجوك اخرجي الآن ولكن أنا أريد بعدين بعدين وتستسلم أمه للصوت الآمر وتتراخى أصابعها الممسكة بيده ثم تطير يدها مبتعدة وصوت الباب ينغلق وراء ظهره يدير رأسه فيدهمه بياض الباب الموصد ويدهمه الجدار ولا أحد هناك فالغرفة خلت من وجه أمه الأليف ولكن

كيف هان عليها أن تتركه وحيدا وأعزل مع هذا الرجل الغريب اجلس لا تخف اعتبرني مثل أخيك الأكبر يجلس مترددا على حافة مقعد يلتصق بمكتب الرجل يقول له الصوت سوف نتحدث أنا وأنت قليلا مثل أصدقاء ولكن في البداية خلينا نتعارف تمتد نحوه ذراع قصيرة بين أضواء الشموع فوق سطح المكتب العريض والرجل ينحني بجذعه كي يجعل ذراعه تزداد طولا وردن سترته القاتمة ينسحب إلى الوراء ويكشف عن مقطع من زنده العريض يغطيه شعر كثيف مثل شعر خروف أسود ويكشف أيضا عن حافة ردن قميصه الشديد البياض والوجه يتكلم في هذه الأثناء أعرفك بنفسي أنا الدكتور محمود سالم أعمل في هذه لا يكترث باليد الممدودة ولا بالوجه الذي ذكر اسما إنما تبهره النيران الصغيرة المشتعلة في رؤوس الشموع ثلاث شموع طويلة كل شمعة تقف متفردة في صحن أبيض تذرف دموعها الساخنة في قاع الصحن في حين تتمايل لهبتها الصفراء نقية وجميلة تنشر ضوءها في جنبات الغرفة وذراع الرجل ما تزال ممدودة فوق سطح المكتب تريد منه شيئا ويسمع صوتا آمرا نافد الصبر يقول له هات يدك وخلينا نتصافح مثل صديقين نعم أنا وأنت أصدقاء منذ هذه اللحظة يمد كفا مترددة ويشعر بيد الرجل حارة ورخوة مثل طبقة سميكة من العجين الحار تحيط بلحم كفه يريد أن يبتسم إلا أن إحساسا بالارتياب يجعله ينفض العجين الحار عن لحم يده يطوي الرجل ذراعه الممدودة ويعتدل في جلسته يستند بظهره إلى مقعده الجلدي ويسمع صوته يسأل نعم أخ سعيد ما هي المشكلة التي تعذبك هل تشعر مثلا ويسترسل الرجل في الكلام في الأسئلة في التلويح بيديه والشموع في هذه الأثناء تبكي من حوله ويبقى هو صامتا ينظر إليها

وهي تشتعل وتبكي يود أن يحملها بين يديه وصوت الرجل على كرسيه الدوار لا يتوقف أخ سعيد إذا كنت تريد الحقيقة فنحن كلنا في هذا البلد والشفتان الغليظتان تتكلمان وسط الوجه المنتفخ الذي لا يرتفع كثيرا عن مستوى سطح المكتب على الجانب الآخر والكلمات المتلاحقة تصبح همهمة رتيبة في هواء الغرفة الثقيل كهواء القفص هناك وهو ما يزال يحدق مبهورا إلى اللهب الأصفر الجميل فالرجل الذي لا يتوقف عن الكلام يضع شمعتين على مكتبه كل شمعة تقف في صحنها على جانب وشمعة طويلة ثالثة على طاولة بجوار ديوان مستطيل لصق الجدار يشبه سرير نوم واطىء غطاؤه الجلدي الأملس يلمع في الضوء والشفتان النديتان تفترقان وتلتقيان ان ما أريد أن أقوله أخ سعيد إن الذي ينبغي أن يتكلم هو أنت وتمتد إصبع كبيرة نحو صدره مثل ماسورة مسدس لكنها لا تطلق النار إن الوحش الذي يعذبنا ليل نهار يسكن في هذا المكان وتتحرك ماسورة المسدس صوب رأس الرجل نفسه ويقول الصوت هنا وليس في أي مكان آخر جهنم في رؤوسنا يا أخ سعيد وعلينا أن نواجه الحقيقة إذا أردنا مفهوم مفهوم أراد أن يقول له لا ليس مفهوما فوهج النار فقط في الرأس إنما جهنم نفسها ولكنه يتركه يهذي ذراعه القصيرة تتحرك في الهواء تذهب شمالا تذهب يمينا تشير إلى السقف تشير تحت المنضدة خذ عندك مثلا هذه السيجارة وتتمايل سيجارة طويلة بيضاء بين الأصابع المرفوعة أمام وجهه أنت تعتقد أنها يواصل الصوت الخشن كلامه وهو يسمعه حينا ولا يسمعه أكثر الأحيان والشموع تبكي وتذرف دموعها في قيعان الصحون البيض الصغيرة لتسيل فوق دموع قديمة تجمدت من احتراقات سابقة وبقيت عالقة

بجدران الشموع في أطوال مختلفة لتذوب حين تصل إليها النيران مرة ثانية وصلعة الرجل تلمع وزجاج عويناته الطبية كلما حرك وجهه يداه تشاركانه الكلام والظلال السود تسيل على الجدران وتلطخ السجادة الحمراء على الأرض وتتمدد تحت المكتب وتحت قدميه وتحت الديوان الجلدي الطويل وهو لا يزال غير مطمئن إلى هذا الرجل الذي يحاول أن يبدو لطيفا معه لغرض في نفسه وأمه ساهرة عافته في هذا القفص وانصرفت يتكلم أخيرا يقول أريد أمي يقول له الوجه المنتفخ أنت تقصد أختك هي تنتظرك في الصالة حاول أنت الآن أن تحكي لي لكي تذهب إليها بسرعة فيقول له أنا أريد علبة ثقاب يحدق في فم الرجل المفتوح والعينين المندهشتين وراء لمعان الزجاج ماذا قلت علبة ثقاب يسقط الرجل يده التي كانت تشاركه الكلام على سطح المكتب ويطرق برأسه ويبقى صامتا يفكر هامته المستديرة الملساء تلمع ثم يرفع إليه وجهه ولكن التدخين ممنوع هنا يده تشير إلى رقعة على الجدار الرجل يكلمه بنبرة حازمة هذه المرة وهذه التي تراها في يدي ليست يهز الرجل السيجارة الطويلة الأسيرة بين أصابعه يقول له أنا أريد علبة أأخذها معي لماذا ألا يوجد عندكم والعينان الزجاجيتان تحدقان إلى وجهه حائرتين إلا أنهما تستسلمان في النهاية طيب سوف أعطيك علبة ثقاب بشرط أن تكلمني مثلما يتكلم صديق مع صديقه زين زين والعينان تتوسلان كلمني عن أيام الطفولة حياتك الجنسية مع من نمت وهل عانيت والتجارب التي مرت عليك وأنت هناك وبعد ذلك عندما عدت إلى هنا كل شيء أريد أعرف كل شيء فيقول له إن أمه ساهرة بدأت تنام مع رجل التقطته من الشارع في الليل ولكن صوت الرجل الأصلع يعارضه

يقول له أولا يجب أن تكف عن مناداتها بأمك فهي ليست أمك إنما هي أختك التي ربتك وثانيا هذا الرجل الذي ينام معها هو ولكنه لا يريد أن يسمع بقية الكلمات المنافقة يقول له ساهرة أخبرتني ان امرأة كانت زوجتي يزني بها الآن رجل يحمل مسدسا أنا لا أتذكر ربما لا أعرف وكيف عرفت أختك ألا يجوز أن لا أنا بنفسي شفت هذه المرأة وشفت أيضا الرجل الذي ينام معها هي جاءت به إلى بيتنا ومعهما ولدان صغيران أمي ساهرة تقول هؤلاء ولداك أنت كبرا عندما كنت هناك وجاءت بهما ساهرة وأنا أجلس على التخت والمرأة ضحكت لكنها لم تخرج صوتا من فمها الصغير وأمي ساهرة لم تضحك إنما ثارت في وجهها ووجه الرجل الطويل الذي ينام معها هو بقي واقفا يحمل طفلا صغيرا على ذراعه وينظر إلى وجهي ويبتسم فابتسمت له أنا أيضا وأمي تصرخ جئتما تتفرجان على الجثة ها هي أمامكما ها هي شوفوها زين وإصبعها تؤشر إلى صدري وأنا لا أفهم لماذا كانت غاضبة إصبعها تهتز وجسدها كله أيضا وأنا عندما سمعت كلماتها ألقيت بنفسي على الأرض وصنعت لهما جثة مثل تلك الجثث التي كنت أراها من حولنا عندما كنا هناك والولدان أعجبتهما اللعبة وضحكا وضحكت معهما وأنا ممدد على البساط مثل جثة ميتة من الضحك على نفسها حتى بعد أن طردتهما أمي وتركا البيت مع الولدين يضحكان وفرغ البيت بقيت أنا ممددا على البساط أضحك ولكن أمي ساهرة نظرت إلى وجهي وصاحت لا تفعل هذا مرة أخرى وراح وجهها يبكي لا تفعل هذا أنت تقتلني ثم اختفت في غرفتها وتركت جثتي في مكانها على البساط لكنني ما عدت أضحك حزنت كثيرا عندما وجدت أمي ساهرة غاضبة

وحزينة يقول له الوجه المنتفخ بين الشمعتين نعم أخ سعيد استمر وأصابعه القصيرة تأخذ السيجارة الطويلة التي لا جمرة في رأسها من بين شفتيه الغليظتين يده الأخرى منشغلة تكتب وتكتب نعم وماذا أيضا يقول له أنا عندي سر دكتور تتحفز العينان تنظران إليه في ترقب من خلال شريحتي الزجاج وما هو هذا السر أمي ساهرة لا تزال بنتا عذراء يبتسم الوجه المنتفخ كيف تكون عذراء وهي متزوجة صدقني دكتور من أول ليلة انفرد بها ذلك الرجل الغريب وأنا أقف وراء الباب أصغي إلى خشب السرير وخشب السرير يقول لي انهما يتململان على الفراش أحيانا لكنهما لا يقومان بذلك العمل الفظيع يتحدثان فقط يتحدثان عني وأنا أسمع وراء الباب وهما لا يعرفان وماذا يقولان عنك لا ينظر إلى الرجل وراء المكتب نيران الشموع تسلب انتباهه لكن الصوت يلاحقه قل لي ماذا تسمع أسمع صوتها مرة وصوته مرة وأنا أغطي فمي بكفي وأضحك في ظلام الصالة وبعد ذلك حين يأتي الصمت ويصعد على السرير لينام بينهما حتى الصباح أترك الباب يرقبهما في مكاني وأذهب لآخذ مكاني في الطابور على المرحاض الصوت يسأله مندهشا طابور داخل البيت لا داخل القفص ومن يقف معك في الطابور أصحابي الأسرى كلمني عنهم الوجه يدنو فوق سطح المكتب والعينان تلمعان أكثر فيداخله إحساس بأن الرجل يحاول أن يستدرجه بكلماته المخاتلة حتى يجعله يعترف على أصحابه يقول له بنبرة أخوية كلمني عنهم وعن حياتكم عندما كنتم هناك لكنه يظل صامتا تكلم لا لن أتكلم أعطني علبة ثقاب أنت وعدتني ويستسلم الوجه المنتفخ فتتابع عيناه يد الرجل تمتد وأصابعه تلتقط علبة ثقاب كانت مختبئة وراء جهاز التلفون وتتحرك نظراته مع حركة ذراع الرجل بين أضواء الشمعتين الباكيتين

وفي نهاية الأصابع تتعلق العلبة التي تمنى الحصول عليها منذ زمن فأمه ساهرة تحرم عليه اللعب بعلب الثقاب وتبعد عنه مصادر النيران ويخاف أن يغير الرجل رأيه ويطوي ذراعه فينهض واقفا ويختطف العلبة من اليد الممدودة والعينان ترقبانه باهتمام فيبتسم للعينين المحدقتين ويفتح العلبة ويخرج عودا فيلمح فم الرجل ينفتح قليلا غير أنه لا يسمع منه صوتا ثم لا يعود يكترث بالوجه المترصد إنما يتحول بكامل انتباهه إلى اللهبة التي انبثقت اثر احتكاك رأس العود القاتم بجدار العلبة الأسود والنار الصغيرة الصفراء تستطيل صاعدة يحف بها من الأسفل لهب أزرق متموج شفاف ويشعر بالعينين الزجاجيتين المفزوعتين تراقبانه ويأتيه صوت حائر يسأل ماذا تفعل ماذا تفعل لكنه مأخوذ باشتعال النار الجميلة التي يمتلكها الآن بين أصابعه بذرة صغيرة لحريق مهول يأتي على كل شيء يضحك مسرورا ثم يقذف بالعود المشتعل صوب رجل الشموع الذي يهب مفزوعا ما هذا الذي تفعله واليدان المخبولتان تنفضان النار عن بياض القميص فيسقط العود المتأجج على الأوراق فوق سطح المكتب وتهوي كف الرجل على لهبة النار الصغيرة المحتضرة وتقتلها ويبقى العود المتفحم يرقد ميتا متكسر الأطراف فوق الحروف السود التي سطرها الرجل في أوراقه ويرنو هو إلى أشلاء العود في أسف في حين تواصل أصابع الرجل الضغط بعصبية على جرس المكتب وفمه يصدر أصواتا مستنكرة لالا ما كان ينبغي اللعب بالنار ليس ما كنت أتصور أبدا أختك لم تخبرني وينفتح الباب وراء ظهره وتنتصب إلى جواره قامة رجل آخر رآه يجلس في مدخل صالة الانتظار يقول له الصوت الغاضب خذ منه علبة الثقاب وأخرجه من هنا فورا وناد لي على أخته ينتزع رجل الصالة علبة الثقاب من يده يعيدها إلى الطبيب الذي يخرج من وراء

مكتبه عيناه ترقبانه في خوف ويوشوش في إذن الرجل بكلمات لا يستطيع أن يسمعها إلا أن وجه رجل الصالة يستدير إليه عيناه تحدقان إليه كما لو كان إنسانا مخبولا والرجل الغاضب الذي عاد يجلس وراء مكتبه يقول آمرا تفضل معه تفضل يتردد في الخروج فهو لم يقل بعد كل ما عنده من كلام لم يتحدث عن أيام التدريب قبل الذهاب إلى هناك عندما كانوا غير أن رجل الشموع يخاطبه بصوت قاطع في أمان الله ويد رجل الصالة تجره من ذراعه خارج الغرفة يجد أمه ساهرة تنتظره متلهفة يهرع إليها مستنجدا ساحبا معه رجل الصالة الذي لا يريد أن يطلق سراحه يقول لها هذا الرجل في الداخل طردني لكنها تبتسم ثم تنظر إلى الآخر الذي يخبرها بطلب الدكتور يحاول الدخول معها لكن رجل الصالة يمنعه تمس ساهرة كتفه مشجعة سأعود إليك حالا انتظر هنا مع الأخ وينغلق عليها الباب عندئذ فقط يفلت رجل الصالة ذراعه ويجعله يجلس على كرسي بجوار المنضدة عند المدخل ويأخذ هو مكانه وراءها ينظر إلى الباب الأبيض ينتظر خروج أمه يبتسم لوجوه المرضى المنتظرين والليل يلطخ زجاج النوافذ بالسواد من الخارج وفي الصالة تتراقص نيران الشموع في كل مكان كأنهم يقيمون احتفالا وبرغم كثرة الشموع إلا أن الوجوه التي يراها أمامه فوق المقاعد لا تبدو واضحة المعالم والظلال الراكدة تحت المقاعد وبين أحذية الجالسين تبدو شديدة السواد ويهم بالنهوض لخطف واحدة من تلك الشموع الكثيرة يشعل بلهبتها حريقا جميلا إلا أن عيني الرجل تحاصرانه فيجلس ساكنا يتأمل الحرائق الصغيرة المشتعلة من حوله لا بأس سوف يحصل على النار التي يريدها في يوم من الأيام ويشعل حريقه الكبير فهم لا يستطيعون أن يمنعوا عنه مصادر النيران إلى الأبد!

٥

تقول لزوجها:

"هذا الطبيب الذي أرسلتنا إليه رجل مخبول! هو نفسه بحاجة إلى من يعالجه!"

لا ترفع عينيها إليه وهي تكلمه جالسة ,ذراعاها تهبطان على جانبيها منبسطتين على الغطاء الأبيض الناعم والبارد ,وحافة حشية الفراش تنضغط تحت ردفيها ,وجذعها منحن إلى الأمام قليلا ,مطرقة برأسها شعرها يتهدل على جانبي وجهها. وقف زوجها في ركن الغرفة يخلع ثيابه بلا مبالاة بدت لها غريبة ,إذ لم يمض على زواجهما غير أيام وهذه العادات اليومية المبتذلة للحياة الزوجية لما تزل غريبة عليها. ضحك بفتور.

"مخبول! كيف؟"

زوجها بدا متعبا ,عرفت ذلك من خمول صوته. رفعت يديها عن الفراش ,ووضعتهما متجاورتين في حضنها.

"تصور، كان طول الوقت يتظاهر بالتدخين بدون أن يوقد سيجارته!"

ابتسمت وهزت رأسها وحدقت في ظاهر كفيها تتأمل العروق المتشابكة التي ظهرت قبل الأوان وجعلت البشرة تفقد نضارتها. لمحت

ظل زوجها يتأرجح على البساط، مقتربا ثم هبط جسده بجوارها على السرير مرتديا منامته فانخسف بهما الفراش,انخسف قليلا إذ إن زوجها رجل ناحل الجسد. شاهدت ظليهما يتوحدان على البساط وأسفل الجدار فضوء الفانوس يسقط على ظهريهما بشكل منحرف ويدغم ظلها بظله. ولعل هذا الالتحام في ظلال الجسدين-الذي لابد أن زوجها لحظه أيضا- هو الذي شجعه وجعله يرفع يده مترددا ثم يجعلها تحط برفق على فخذها قريبا من الحوض..قريبا من موقد النار المدفونة تحت رماد الكبت الجنسي الطويل والمتعمد الذي فرضته على نفسها بعزم راهبة نذرت نفسها إلى الله. شعرت بثقل يده وبدفئها وبهيجانها -هيجان وحش صغير مضطرب-فوق لحمها المستفز فهبت واقفة كأنها تذكرت، في تلك اللحظة بالذات، أمرا غاية في الأهمية. وابتعدت عن السرير تكبح جماح مشاعرها قبل أن تضعف وتتخاذل. قالت لنفسها لم يحن الوقت بعد-لا لم يحن. ليس بوسعها أن تنشغل الآن بملذات الجسد، وابنها ما يزال يعيش في عالمه النائي. تشاغلت بترتيب الثياب التي خلعها زوجها قبل قليل، وراحت تعلقها على المشجب، بعناية وأناة، كأن ذاك هو الشيء المهم الذي نهضت من أجله بتلك العجالة. سمعت صوته المجروح يقول وراءها:

"ومن هو الإنسان السوي هذه الأيام!"

من حقه أن يتكدر وأن يعاتبها. حاولت أن تعتذر.

"تعبت كثيرا هذا النهار. الانتظار الطويل في العيادة,وكلام هذا الطبيب,والمشي إلى البيت. أتدري ماذا فعل؟ أقصد الطبيب."

استدارت بوجهها إليه. نظر إليها في ترقب.

"أعطاه علبة ثقاب!"

أزعجه الخبر.

"وهل..!؟"

"طبعا. ماذا كنت تنتظر!"

دهمها وجه الطبيب مرة أخرى. انظري ماذا فعل أخوك! وأبعد طرفي سترته الكحلية كأنه يكشف لها عن موضع طعنة خنجر. في بياض القميص النظيف لمحت بقعة صغيرة صفراء..بقعة باهتة. لماذا لم تقولي إن أخاك يحب أن يلعب بالنار!؟ ردت مرتبكة:

حاولت، لكنك لم تعطني الفرصة، ثم أن زوجي..زوجك لم يذكر! خاطبها بلهجة غاضبة موبخا، فشعرت بالمهانة والحرج، ولم ترتح له منذ تلك اللحظة، فرجل يتعامل مع أناس تحطمت أعصابهم يجب أن يتوقع مثل هذه الأمور، أليس كذلك!؟ كيف يعطي لابنها علبة ثقاب، وبعد ذلك يلومها!؟

"ألم تخبره أنت؟"

"في الحقيقة نسيت."

بدا زوجها نادما. رأته ينهض، يوقد سيجارته، ثم يمضي ليقف بجوار النافذة، يزيح طرف الستارة، ويفتح مصراعا، ليحدق بعد ذلك في شرود إلى ملامح المدينة الهاجعة في الظلام. رنت إليه مشفقة. كل هذا الانتظار المضني سوف ينتهي عندما يسترجع ابنها كامل وعيه، ويعيش حياته من جديد.

"هل تحب أن أجيئك بالعشاء إلى الغرفة؟"

سألته برقة.

"لا. أنا أكلت عند صديق."

هي لا تأكل معه على أية حال، إنما تأكل مع ابنها لتشجعه على الأكل، فهو يحجم عن تناول الطعام، كي يقلل من عدد المرات التي يضطر فيها إلى الوقوف في الطابور المنتظر على دورة المياه، كما يقول، كأنه ما يزال يعيش في قفص الأسر، لهذا السبب هي تجلس معه، وتحثه على الأكل، مثلما تفعل أم مع طفلها المدلل، وزوجها يأكل عند أصدقائه أحيانا. إلا أنه تأخر كثيرا في العودة إلى البيت اليوم، وجعلها تقلق عليه، ففي هذه الظروف الغامضة لا أحد يدري ما الذي يمكن أن يحصل لإنسان يتحرك في الدروب متأخرا. ذهبت ووقفت بجواره عند النافذة. المشهد الحزين نفسه تبدى لعينيها: قوس الجسر الحديدي- الذي بقي سالما بعد القصف-يجثم على جسد النهر مغلفا بما يشبه الضباب القاتم، ودجلة يحمل بين ضفتيه المتباعدتين جانبا من الليل ويسري به في البطاح مارا بالمدن الصغيرة والقرى ميمما شطر الجنوب..شطر مدينة زوجها. لعله في وقفته الساهمة هذه يفكر بمدينته المدمرة، مهاجرا إليها بروحه مع مياه النهر. قالت له متوسلة:

"حاول ألا تتأخر هكذا بعد الآن!"

ضغط على يدها.

"لم يكن قصدي، إنما الكلام أخذنا. هل نام أخوك؟"

" لم أغادره حتى رأيته يغفو."

"وماذا قال الطبيب حول علاجه؟"

فتذكرت ما قاله ذلك المعتوه. "أخوك هذا..كيف أشرح لك,فأنت لن تفهمي. لا تقاطعيني!" وما كانت تنوي أن تقاطعه، غير أنه بدا نافد

الصبر. رأته يضع طرف سيجارته في فمه، يأخذ منها أنفاسا طويلة، ثم يلملم شفتيه وينفخ في الهواء، وبعد ذلك يهز يده في حركات سريعة ليبعد الدخان عن وجهه. إلا أنها لم تلمح دخانا يخرج من فمه، وعندما حدقت إلى رأس سيجارته اكتشفت أنها لم تكن موقدة. "اجلسي!" أمرها وهو يشير إلى مقعد على الجانب الآخر من مكتبه.

"وهل حدد له موعدا آخر للزيارة؟"

"قال بعد أسبوع!"

مكثا يقفان جوارالنافذة، حتى أكمل زوجها تدخين سيجارته. ثم جر طرف الستارة فحجب عنهما ليل المدينة الكئيب، وعادا إلى السرير. أنزلت ذبالة الفانوس فتكالبت عليهما الظلال. رقد كل واحد منهما على جانبه من الفراش، وتمدد بينهما ذلك الدرب من الفراغ.

"قل لي ماجد. أنت كلمت الطبيب عني؟"

أمال رأسه على الوسادة ونظر إليها.

"عنك أنت!؟"

"قصدي عن..يعني..أنت تعرف. عن حياتنا المؤجلة هذه."

"غريب! لماذا تسألين مثل هذا السؤال!؟"

"لا أدري. داخلني إحساس وأنا أستمع إليه أنه يعرف!"

نظر إليها في حيرة. تمتمت غير واثقة من ظنونها.

"لعلي كنت متوترة."

"حتما، فأنت تحملين كلمات الآخرين بمعان تدور داخل رأسك أنت وحدك!"

"ربما، ولكنني..!"

توقفت عن الكلام. لم يكن لديها شيء محدد تعزو إليه هواجسها..محض إحساس مبهم داخلها وهي تستمع إلى هذر ذلك الطبيب المخبول. قال لها: "أنت لست كبيرة في السن، فلماذا تجعلين من نفسك أما لرجل لم تلديه" يده القصيرة تتحرك أمام وجهها متسائلة. نظرت إليه في استنكار. "دكتور أنا لم أجئك تعالجني فلماذا..!؟ ثم ماذا تعرف أنت عني!؟"

ضرب طرف سيجارته على حافة المنفضة ليسقط عنها رمادا لا وجود له، ثم رفع رأسه إليها. "أنا أعرف ما أرى وما أسمع، وأعرف أيضا ما تحاولين إخفاءه عن الآخرين. لماذا لا تعيشين حياتك!" قالت له أنا أعيش حياتي! "لا! أنت لا تعيشينها!" وأخذ نفسا من سيجارته وأطلق دخانه الوهمي في الهواء، ثم أبعده عن وجهه بيده. رجل مختل العقل حقا!

"إذن فأنت لم تذكر له شيئا."

لم يصدر أي رد عن الجسد المستلقي على الجانب الآخر من السرير، رأسه مطروح على الوسادة، لحم خده ينضغط على القماش، يتنفس بهدوء. نام منزعجا. "ما كان ينبغي أن أوافق على الزواج قبل أن يسترجع ابني سعيد حياته الضائعة، إذ ما جدوى الارتباط برجل بدون أن تسمح له أن يعيش معها حياة طبيعية كما يعيشها بقية الأزواج!؟ ألست مجنونة أنا أيضا!؟"

*

خشب السرير داخل غرفة نومهما ساكن لا يطقطق، والكلمات التي تبادلتها أمه مع ذلك الرجل الغريب لا معنى لها. يبقى دقائق أخرى

واقفا في ظلمة الصالة ملصقا أذنه بالباب الموصد..لا صوت ولا نأمة. الصمت وحده ينام الآن بين الجسدين. هو يحب كثيرا هذا الصمت الخالي من الحركة، يشعره بالاطمئنان على بكارة أمه. يمشي مبتعدا عن الباب المتواطىء معه ويأخذ مكانه في نهاية الطابور الطويل المنتظر على دورة المياه.

٦

"آه من الليل، ووساوس الليل!"

من بين الظلال الدكناء العالقة بسقف الغرفة أطل عليها وجه الطبيب الأخرق، بصلعته اللامعة، وعويناته، وسيجارته المطفأة. قال لها أريدك أن تخبريني بكل شيء! سمعت صوته المسيطر وسط سكون الغرفة. بوسعك أن تنامي هنا. رأت أصبعه تشير إلى ديوان بجوار الجدار، فنظرت إليه مندهشة. دكتور أنت تعاملني كأنني أنا المريضة! قال لها طيب. مثلما تحبين. وترك يده تسقط على سطح المكتب، فوق أوراقه. سألته ماذا تريد أن تعرف؟ كل شيء. تراءى لها بين الظلال في السقف فوق رأسها، جالسا على كرسيه الدوار وجهه يظهر ويختفي، في حين مال نحوها وجه زوجها الغافي على توقع امتنعت عن تحقيقه، شعره الأسود يخالطه الشيب، والظلال تزداد سوادا في تجاعيد وجهه، وفي تجاعيد الوسادة، عيناه خطان دقيقان لامعان يلوحان من بين أهدابه السود المتباعدة قليلا، والشرشف الأبيض ينزلق عن عظام كتفه المائل، وفي الخارج جثم الليل على المدينة بكل أهواله الغامضة. مدت يدها وسحبت طرف الشرشف برفق وغطت به كتفه المكشوف، ورنت إلى وجهه. لو أن قارئة كف أو فنجان تنبأت لها بأنها سوف تتزوج رجلا

غريبا لا تعرف عنه شيئا، تلتقيه في الشارع بعد منتصف أحد ليالي الصيف، لعدت مثل هذا الكلام هذر مشعوذين، ومع ذلك فهاهو الرجل الغريب يتمدد، بطول قامته إلى جوارها، على الجانب الآخر من السرير، ويتحمل شرطها العجيب بصبر لا مثيل له من رجل ينام بجوار جسد امرأة نابض بالحياة، ويشاركها متاعبها واهتمامها القلق بمرض سعيد، وينتظر مثلها ساعة شفائه بلهفة، وبأمل. ولكن هل يشفى ابنها؟ أراد منها الطبيب أن تبوح له بكل ما عندها، حتى يكون على بينة. أريد أعرف كيف وصل إلى هذه الحال. كلميني عن البداية. البداية بعيدة, دكتور! بعيدة في حساباتك أنت يا سيدة ساهرة فمادامت الذاكرة تعمل فليست هناك بداية بعيدة وأخرى قريبة، فنحن نحمل بداياتنا معنا أينما ذهبنا! ما علينا..تكلمي! قالت له كنت في السادسة والعشرين، أشتغل مدرسة للتاريخ عندما رحلت أمي، فتركت العمل لأرعى والدي وأخوي. كانا صغيرين، وعندما كبرا ذهبا إلى الحرب. سالم وقع أسيرا، وسعيد قتل ودفنته بيدي، وما كنت أدري..ولكن الطبيب قاطعها. لا تقفزي فوق الأحداث! طيب، بعد وفاة أمي قال لي أبي أنت الآن أصبحت أم البيت، أمنا جميعا! رأت ابتسامة ساخرة على وجه الطبيب، وسمعته يقول ولم يكن الأبله أبوك يدرك طبعا، حين وسمك بدمغة "أم الجميع" أنه جعل منك أمة للآخرين إلى الأبد! أزعجتها كلماته. قالت له دكتور أنا لا أحب أن أسمع أحدا يتكلم عن أبي بهذه اللهجة! أثار انتباهها صوت دوي مباغت في الخارج، وسط سكون الليل المهيمن على المدينة- دوي انفجار في مكان لا يبعد كثيرا، على الجانب الآخر من النهر ربما، تلاه على الفور صوت زخات رصاص استمر لبرهة من الزمن، ثم تعالى

صراخ وعويل لعدد من النساء المرعوبات أو المفجوعات. بدا الضجيج شديد الوضوح في صمت الليل حد أنها استطاعت أن تميز بين اختلاط تلك الولولة النسائية صوتا رجاليا متفردا يستنجد. تواصل العويل والصراخ لبعض الوقت، وكانت الكلاب المتشردة هي وحدها التي استثارها ذلك الضجيج البشري اليائس، في هدأة الليل فراحت تنبح مهتاجة، كأنها تعارك أشباحا في الظلمة، واختلطت الأصوات وتداخلت، أصوات الناس وأصوات الكلاب، ثم خمدت الأصوات البشرية، وبقيت الكلاب وحدها تنبح بعناد دقائق طويلة، ثم تعبت وسكتت هي أيضا، واستعادت المدينة صمتها المتوجس. انقلبت على جنبها وواجهت زوجها. رأته ينظر إليها بعينين قلقتين.

"هل أيقظك دوي الانفجار وصوت الرصاص أنت أيضا؟"

"لم أكن نائمة."

"أما زلت تفكرين بكلام الطبيب؟"

"كلماته أزعجتني."

"حاولي أن تنامي، فالتفكير في ما جرى لا يغير شيئا."

رأته يغمض عينيه. التفكير لا يغير شيئا. هي تعرف هذا، كل إنسان يعرف هذا. "آه لو كنت أمتلك قفلا أوصد به هذا الدماغ الملعون، لكي لا أسمع ضجيجه الموجع!" أدارت ظهرها لزوجها ونامت على جنبها، في مواجهة خزانة الثياب، فتراءى لها وجه الطبيب فوق خشب الخزانة. قال لها وأنت طبعا تقبلت بعد ذلك القيام بدور الأم باستسلام بهيمة! نهضت عن المقعد غاضبة. اجلسي! لا تنفعلي! أنا لا أشتمك. أنا فقط أسمي الأشياء بأسمائها. ولا تدري لماذا لم تخرج من عنده. كلماته

المزعجة وجدت لها صدى في أغوار روحها..كان يواجهها بحقائق ما كانت تجرؤ على البوح بها. كان يضع جهاز تسجيل صغير يعمل بالبطارية، على جانب من المكتب، وضايقها وجود ذلك الجاسوس الآلي. شعرت كأن شخصا ثالثا يجلس معهما في الغرفة، ويتلصص على أسرار حياتها. حاولت أن تتجاهل وجوده إلا أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر إليه بكراهية بين وقت وآخر. قال الطبيب يستعجلها أكملي حياتك. عندي مرضى ينتظرون. قالت ابني الكبير..ولكنه قاطعها أنت تقصدين أخاك الكبير. لم تعبأ باعتراضه. قالت مرة أخرى سالم ابني الكبير تخرج مهندسا للبناء، وعمل في إحدى الشركات، وسعيد أنهى دراسته بعد ذلك واشتغل مدرسا، ثم رحل أبي وترك لنا بعض المال وما ينوبني من معاشه والدار التي نسكنها وبقيت أنا في البيت لا أفكر في الزواج إنما في السهر على راحتهما. قال لها الطبيب بعد أن نفخ دخانا وهميا في الهواء وهكذا تحدد مصيرك! لم تسمع صوتا لحركة الشريط داخل المسجل، فالآلة الملعونة كانت تلتقط كلماتها وتختزنها في صمت الأفاعي.

سألها ألم يتزوجا بعد ذلك؟ الصغير أحب زميلة له في الكلية وتزوجها أما الكبير فلم..

ألم تخفف عنك زوجة الصغير وحشة البقاء وحيدة في البيت ؟ بالعكس،غيرأنني لم أشك ولم أتذمر. قال لها جسدك وحده هو الذي ظل يشكو ويتذمر! دكتور أنت تتجاوز! استمري! ورأته يأخذ أنفاسا متلاحقة من سيجارته المطفأة، ويتأرجح في كرسيه الدوار وأضواء الشموع وما تصنعه الظلال تتبادل الأماكن على وجهه وصلعته والظاهر

من جسده فوق سطح المكتب. انتزع الطبيب السيجارة من بين شفتيه ونفخ في الهواء فاشتمت رائحة دخان، فهل مسها الوهم هي أيضا!؟ غير أنها انتبهت إلى أن ما كانت تشمه من رائحة تبغ محروق كان في الحقيقة الأثر الذي بقي عالقا في سماء غرفة نومهما من السيجارة التي دخنها زوجها واقفا بجوار النافذة، قبل أن يأويا إلى فراشهما، فانقلبت لتنام على الجانب الآخر، ونظرت إلى زوجها بمودة. سألها الطبيب وبعدين قالت له وبعدين جاءت الحرب! أي واحدة؟ حربنا الطويلة، ووقع ابنها سالم أسيرا ثم غادرها الصغير تاركا معها زوجته وابنا في الثالثة وطفلا في عامه الأول ويوم أخبروها بسقوطه شهيدا لم يجلبوا لها جثته قالوا لها إنهم لمحوها من بعيد مطروحة في الأرض الحرام، خوذته المعدنية الساقطة عن رأسه تلمع في الشمس بين الأشواك في الصحراء، إلا أنهم لم يستطيعوا الوصول إليها فرصاص الأعداء كان كثيفا لكنهم سوف يأتون بها سوف يأتون بجميع الجثث التي سقطت هناك حالما تستعاد الأرض قالوا لها ذلك وانصرفوا. وجاؤوك بجثة بعد ذلك! يوما بعد يوم كانتا- هي وزوجته فاتن- تودعان الولدين عند الجيران، وتذهبان إلى مركز استلام الجثث تسألان وتنتظران وهناك تعرفت الفاحشة زوجته على الوغد الذي زعم في ما بعد أنه تزوجها. نعم جاؤوني بجثة دفنتها وأقمت الفاتحة ولبست الحداد! لكنها لم تكن جثة أخيك! ابتسمت بمرارة لقد كان يجلس معك قبل قليل! ولمن كانت تلك الجثة؟ ليتني أعرف! كنت أذهب لأزور القبر، بين وقت وآخر، حتى بعد عودة سعيد. كنت أصحبه معي ونذهب. نظر إليها الطبيب مستنكرا. تأخذينه معك ليزور قبره!؟ كيف تفعلين هذا! دكتور أنا ما كنت أستطيع أن أعوفه وحده في

البيت وهو في الحال التي رأيتها ثم هو لا يعرف حكاية القبر ولم يفكر أن يسأل، فهو فقد الاهتمام بكل شيء! بعد عودته طلبت من عامل المقبرة أن يقلع الشاهدة التي حملت اسمه قلت للعامل إنني أعتزم أن أنصب شاهدة أخرى جديدة ولم أضع واحدة أخرى بالطبع لأنني ما كنت أعرف أي اسم أكتب عليها. وهكذا كان سعيد عندما يذهب معي يرى قبرا بلا هوية! ورد فعله.. ماذا كان رد فعله؟ قلت لك دكتور ما كان يكترث لشيء. كان يجلس أحيانا على حجارة أحد القبور وأسمع صوته وراء ظهري يحصي عدد الموتى واحد اثنان ثلاثة أربعة عشرة عشرون وكنت إذا فعل ذلك أقطع زيارتي للقبر بسرعة وأعود به إلى البيت. في زيارات أخرى تراه يلتقط أحجارا صغيرة يرمي بها شواهد القبور أو يصنع من كفه مسدسا يطلق منه النيران على الموتى وهو يضحك في حين كنت أنا أجلس على الأرض أصغي للرجل الذي يرتل القرآن وأبكي الميت المجهول الذي في القبر والذي ينتظر أهله عودته والميت الذي معي. وكان المقرىء يقطع تلاوته ليقول له موبخا لا تفعل هذا يا ولدي ثم يعاتبني لأنني جئت به إلى المقبرة يا ابنتي هذا الرجل لا يراعي حرمة الأموات فأقول له لا تشغل بالك به يا مولانا فهو واحد منهم انطفأت إحدى الشمعتين على طرفي المكتب فسقطت الظلال تلطخ جانبا من وجه الدكتور محمود سالم مد يده إلى أحد الجرار أخرج شمعة كبيرة أشعل رأسها وغرز كعبها في بركة الدموع في الصحن. سألها وكيف رجع أخوك بعد ذلك؟ كنت أقف بين زحام الناس الذين جاؤوا مثلي يستقبلون أبناءهم الأسرى العائدين أنتظر عودة ابني الكبير سالم لم أكن وقتها أعرف أنه مرض ومات في قفص الأسر أحد العائدين جاءني بعد ذلك

وأخبرني كان معه في القفص نفسه لو كنت أعرف وقتها ما كنت خرجت في الليل ووقفت وسط زحام الناس أنتظر ولكن يبدو أن الأقدار أو المصادفات الغريبة كانت تعد لي شيئا آخر لم تخبر الطبيب الضيق الخلق بكل ما عاشته تلك الليلة كان منشغلا يلقم جهاز التسجيل شريطا آخر وكانت خواطرها تتراكض تعيش أحداث تلك الليلة بكل تفاصيلها كان الأسرى يصلون في مجموعات كبيرة في ساعات متأخرة من الليل في الغالب ووقفت هي بين الناس تنتظر. سيارات كثيرة للمستقبلين كانت تقف في فسحة واسعة وبجوار الأرصفة وفي نحو الثالثة فجرا سمع الناس ذلك الصفير الحاد المتقطع لإحدى سيارات شرطة النجدة التي ترافق مواكب العائدين يشق صمت الشوارع المقفرة ثم لمحوا الأضواء الملونة تقبل من بعيد وتعالت الصيحات المستبشرة وزحفت الجموع إلى منتصف الشارع تستقبل العائدين بلهفة وهي معهم وتقدمت نحوهم قافلة من عشر حافلات ملأى بالأسرى العائدين تتقدمها سيارة النجدة فتح الناس الطريق للقافلة وراحوا يتراكضون على جانبيها وكانت الأصوات المضطربة تنادي بأسماء أولئك الذين غابوا طويلا كان البعض من المنتظرين يحملون لافتات خطوا عليها بحروف كبيرة اسم الغائب المنتظر يرفعونها فوق الرؤوس ويحركونها أمام نوافذ الحافلات المضاءة مصابيحها والعائدون يهتفون بالأسماء هم أيضا وجوههم تطل من النوافذ يحدقون في موجة الوجوه عيونهم تدمع وأذرعهم تلوح للمستقبلين في حركات مجنونة لكن وجوه العائدين الصائحة لم تلبث أن اختفت في ساحة الفرز ليعزلوهم وفق مناطق سكناهم والحشد اللاغط ينتظر البعض منهم يظن أنه لمح الوجه المفتقد وبعد نحو ساعة من

الانتظار القلق خرجت الحافلات من ساحة الفرز وثار الهرج نفسه والعربات تمشي ببطء هذه المرة تتهيأ للافتراق ورأيت بين الحشد الراكض حولي وجوها مخضلة بالدموع لكنها مبتهجة ولمحت بين العائدين وجوها جامدة الملامح زائغة النظرات لا يلوح عليها أي انفعال قال لها الطبيب نعم كنت تقولين إن الأقدار أو المصادفات الغريبة كانت تعد لك شيئا آخر قالت له كنت أقف بين المنتظرين فأقبلت القافلة المحملة بالوجوه التي شاخت هناك وفجأة لمحت وجهه وراء إحدى النوافذ المسرعة لم أصدق هذا ابني سعيد الذي دفنته بيدي بدا ذاويا ولكن الملامح كيف أنسى الملامح كان هو نعم أعرف مثل هذه الحالات فبين مرضاي بعض من أمثالك ولكن دكتور لماذا تصر على أن تعاملني كأنني أنا المريضة قال لها من أجل أن أفهم حالة أخيك بشكل أفضل فهو ربيبك قال لها انه يفترض أنها لم تر الجثة لم يسمحوا لي برؤيتها جاءوني بتابوت مغلق وقالوا لا تفتحيه لكي لا تتألمي أكثر وبعدين سألها الطبيب بعدين رحت أركض وراء الحافلة أحاول الوصول إلى النافذة التي تؤطر وجهه الساكن بين وجوه أخرى منفعلة وأنا أصيح باسمه لعله ينتبه لكنه كان يجلس ساكنا غير مكترث لكل تلك المشاعر المتفجرة من حوله وكانت الحافلات تزيد من سرعتها وأفلت وجهه مني وأنا أركض وكبوت وبقيت منكفئة على الأرض أبكي سعيدة وخائفة أن أكون واهمة وأن من رأيته لم يكن هو ولكنه كان هو وشعرت بيد زوجي أقصد الرجل الذي غدا زوجي في ما بعد تمسك بي تساعدني على النهوض رجل لا أعرفه إلا أن فرحتي وجزعي جعلاني أتمتم مضطربة وأنا أتطلع إلى وجهه المتعاطف ابني الشهيد جاء معهم أنا رأيته في الباص الأخير الذي ذهب الآن أنا

شفته بعيني والله العظيم ونظرت إليه في ضراعة خفت ألا يصدقني لكنه قال لي تعالي نتبعهم بسيارتي فمضيت معه بلا تردد المرة الأولى التي أركب فيها بجوار رجل غريب ما رأيته في حياتي وبعد منتصف الليل في السيارة أخبرني أنه كان عائدا إلى بيته فرأى جمهرة الناس وسمع الضجيج فوقف يرى ما يجري. حين وصلنا إلى المنطقة التي يقع فيها بيتنا وجدناهم ينزلون العائدين أمام إحدى البنايات وسط الهلاهل وقرع الدفوف وصخب الموسيقى الشعبية في مكان لا يبعد كثيرا عن بيتنا ورأيت ابني سعيد كان يقف وحده مثل إنسان تائه على مفترق طرق فركضت إليه وأخذته بين ذراعي وقبلته فلم يبد أي رد فعل صحت به أنا ساهرة أمك هل نسيتني شوفني زين شوفني وبكيت وتفوهت بكلام لا أتذكره الآن وهززته من كتفيه الا أنه ظل يقف ساكنا يبتسم نائيا بنفسه عني وعن كل ما يجري حوله والناس يتسربون في الدروب يزفون أبناءهم العائدين وأنا أحاول يائسة أن أوقظ ابني الذاهل والرجل الغريب الذي لم يفارقني يقف على جانب يرقب محاولاتي ولا يدري ماذا يفعل من أجلي من أجلنا تحولت بوجهي اليه وهتفت ملتاعة لا يعرفني أنه لا يعرفني فقال لي لا تبكي أمامه خذيه الى البيت وسوف يتذكر عندما يرى الأشياء الأليفة التي فارقها كان يحاول أن يبعث الأمل الى نفسي فتعلقت نظراتي بوجهه كأنه نبي قلت له تعتقد أنت تعتقد أنه اذا رأى الأشياء سوف..الا أن الطبيب الذي ظل يصغي اليها صامتا طوال الوقت ويدخن بطريقته الغريبة نظر الى ساعته وتنهد هذا يكفي الآن سوف نتكلم عنه في جلسة قادمة وابتسم لها ابتسامة صغيرة غامضة وأطفأ الجهاز الذي كان يلتقط أسرارها وحين نهضت لتغادر الغرفة لمحته ينفض عن رأس سيجارته التي لم تشعل رمادا لا وجود له في المنفضة الخالية من الرماد!

٧

ليس أمامه في الطابور أحد كلهم دخلوا الى دورة المياه وانصرفوا بعضهم لوح له بيده

وبعضهم مضى بصمت وفي الداخل الآن خمسة من زملاء الأسر هم آخر من كان ينتظر معه في الطابور كل واحد منهم يجلس مقرفصا فوق الأرض المبلولة يخرج واحد منهم متخففا فيدخل هو عندئذ الى زنزانة الأقذار يقف منفرج الساقين فوق الثقب الأسود تلفه رائحة العفونة الآدمية يفتح أزرار بنطلونه بلا استعجال ويصغي بعد ذلك الى خرير الماء النازل منه في جوف الثقب والمرتطم بطين الجدران يحس بالرذاذ المتطاير يضرب ساقيه من وراء قماش منامته وينقر أيضا لحم قدميه الحافيتين أمه ساهرة تلومه تقول له أنت تبول على ثيابك حين تدخل المرحاض أراد أن يقول لها وأنت ترفضين أن تعطيني شمعة مشتعلة أو علبة ثقاب لكي أرى خط سير الماء المنطلق من ماسورة البندقية الا أنه لا يقول لها مثل هذا الكلام يربط أزرار بنطلون منامته قبل أن ينقطع هطول الماء تماما تواصل بعض القطرات المتأخرة تساقطها المتأني في ثنايا القماش ثم تنغلق الماسورة وتنطوي على نفسها في خمول بين طيات ردائه المبلول الذي سوف يجف خلال ساعات الليل ولن تلحظ ساهرة البلل بين فخذيه

عندما تأتي الى غرفته في الصباح يبتعد عن الزنزانة العفنة وقبل أن يأوي الى فراشه يمشي متسللا الى غرفتها يريد أن يتأكد قبل أن ينام أن أمه لم تفرط ببكارتها يضع أذنا وراحة يد واحدة على خشب الباب المغلق ويتنصت خانسا في عتمة الصالون ولكن لا حركة في الداخل ليس سوى السكون وراء الباب الجامد تتراجع أذنه وكذلك يده عن صمت الخشب وتنتهي نوبة خفارته الليلية فالثلاثة ينامون معا الآن على السرير العريض أمه والرجل الغريب الذي التقطته من الشارع وجدار الصمت الذي ينتصب حاجزا بين الجسدين.

٨

"لو أن هذا اللغط المتواصل الذي تثيره الهواجس داخل رأسي في هدأة الليل يفارق قفص الرأس ويبلغ مسامع الآخرين لهب الجيران من رقادهم يتساءلون في حيرة هل جنت هذه المرأة! إلا أن هذا اللغط الذي يؤرقني لا يسمعه أحد غيري!" حتى زوجها النائم على مقربة لا يستشعر ما يجري داخل رأسها النقاشات الطويلة مع النفس وصرخات الغضب غير المجدية والأحلام والأماني المحبطة ابنها الكبير سالم مات مريضا في الأسر بسبب الاهمال وسعيد الذي فرحت بعودته رجع اليها مخبولا "حين غادرت غرفة الطبيب شعرت بأنني دائخة وخيل الي وأنا أخرج الى صالة الانتظار أن عيون المرضى كانت تنبش في وجهي تبحث عن جواب. نهض سعيد عندما رآني أمسكت بيده ونزلنا الى الشارع سيارات قليلة رأيناها تتحرك في الطريق المحلات التجارية والمكاتب كانت مغلقة كلها تقريبا والظلام يسلب الوجوه والأشياء ملامحها وألوانها وفي الهواء رائحة دخان." وقتا طويلا وقفا ينتظران على الرصيف يدها تؤشر للسيارات العابرة و لا أحد يتوقف فقالت له نمشي الى البيت وجرته من يده برفق. الدرب طويل، غير أن كل الناس تمشي هذه الأيام مشى بجوارها طائعا وعلى امتداد الطريق كانت تشاهد هياكل قاتمة تتحرك

من حولهما ووقع أقدام متعجلة ينبثق من عتمة الليل واضحا متفردا وسط سكون لا يخالطه غير هدير سيارة تخطف مسرعة بين آونة وأخرى وتحفر بمصابيحها المشتعلة ثقوبا صفرا في سواد الليل وتنشر شيئا من الضوء على اسفلت الطريق وعلى الجانبين وتنير الأشباح المتأرجحة على الأرصفة فتتكشف لعينيها على الفور أطراف ووجوه واضحة المعالم لا يلبث الظلام أن يحجبها عن العيون مرة أخرى حين تأخذ السيارة العابرة مصابيحها وهديرها وتمضي. كانت السيارات تكشف أحيانا عن الجوانب السفلى لأغصان تتدلى خارج أسيجة البيوت أغصان ساكنة يغطيها ما يشبه الرماد الأسود حملته الريح من حرائق هائلة بعيدة "وداخلني شعور بأنني أمشي مع ابني في دروب مدينة حل عليها غضب الله فتحول أهلها الى أشباح وأشجارها الى نصب من حجارة سوداء!" مرا أمام مطعم صغير على ناصية الطريق أبوابه مشرعة فلمحت في داخله أربع أو خمس موائد وعدد من الفوانيس تلقي بضوئها الخابي على بعض الهياكل المبعثرة حول الموائد. شاهدت أيدي ترتفع وتنخفض مستعجلة وأفواها منشغلة بالمضغ كأن هذه الكائنات البشرية المبهمة الملامح والتي تجهل مصائرها في الساعات القادمة تريد أن تنتهي من تناول طعامها بسرعة لكي تمضي بعد ذلك تختبىء في جحورها الكئيبة قبل أن يتقدم الليل غادرا الشارع التجاري بعد فترة وامتد أمامهما الطريق طويلا ومظلما تابعا سيرهما على الرصيف يرافقهما وقع خطى الماشين من الناس يهرعون الى بيوتهم بخطى عجلى كأن أبالسة الجحيم تطاردهم في تلك الساعة سألت ابنها لماذا أغضبت الطبيب تكلمت معه بصوت خفيض بسبب الليل قال لها شموعه جميلة أنا قلت لك ألف مرة يجب

ألا قال لها هو بنفسه أعطاني علبة الثقاب وماذا تريد أن تفعل بالعلبة خاطبته بصوت يائس ملتاع ارتفع بدون قصد منها فوق الهمهمة الخفيضة ووقع الخطى المضطربة حولهما أنت تريد تحرقنا تحرق البيت تحرق نفسك تحرق أمك سألته بنفاد صبر قال لها أمي لا أنت لا! وضغط على يدها قالت متوسلة اذن اترك عادة اللعب بالنار ان كنت تحبني سألها وتعطيني أنت علبة سكتت يائسة لا جدوى من الكلام معه ظلت تمشي صامتة تشعر بجسده يتحرك بجوارها وتسمع أنفاسه قالت له تحب نجلس على الرصيف نستريح قليلا قال لها لا نمشي أحسن حتى لا نتأخر في الطريق كلمها بوعي تام في مثل هذه اللحظات يشرق في صدرها الأمل الا أنه كان لا يلبث أن يغوص مرة أخرى في عالم الرؤى والخيالات التي لا ضابط لها ويأتي أعمالا غريبة نظرت الى وجهه وابتسمت قالت مثلما تحب ما كانت تتصور أن الطريق سيكون متعبا بهذا الشكل عند مدخل أحد الأحياء الشعبية لمحت هيكل سيارة نصف مكشوفة تكمن في العتمة وفوق ظهرها ينتصب مدفع رشاش ماسورته مثل خط أسود يشق الهواء المعتم بجوار خيمة بدت مثل تل قاتم صغير وأمامها يتحرك ثلاثة أو أربعة أشباح خشيت أن يلحظ ابنها ما رأت جرته ومشت به مسرعة حتى ابتعدا عن المكان قالت له لنمش بين الأزقة أحسن ودلفا في أحد الدروب الضيقة راحا يسيران بين صفين من بيوت ساكنة كلها مظلمة تقريبا ثمة أضواء قليلة باهتة تنبعث من فوانيس أو شموع تلوح وراء ستائر بعض النوافذ في حين بدت نوافذ أخرى قاتمة لبيوت هجرها أهلها أو عافوها في لحظة هلع أحست بالوحشة وهما يخترقان دروبا مقفرة لا يسمعان فيها غير وقع أقدامهما المتعجلة على الأرض شاهدت وسط

العتمة أكواما من الأنقاض لصف من البيوت دمرتها صواريخ الطائرات الامريكية أثناء هجومها الشرس على العاصمة عندما اقتربا من ركام الحجارة تناهى الى سمعها صوت ضحكة نسائية مكتومة تنفلت من بين الخرائب ثم لمحت شبحين يتعانقان وراء جدار مهدم ضحك سعيد بصوت مرتفع قالت تحذره اششش يسمعانك لكنه لم يتوقف عن الضحك واصبعه تؤشر ساهرة شوفي جرته من يده بقوة وابتعدت به عن العاشقين اللذين خنسا في مكمنهما المظلم بين الأطلال ظلا يمشيان صامتين ثم غادرا الأزقة عبرا الشارع وبعد مسيرة مرهقة وصلا باب البيت لاح لها نهر دجلة مثل خندق قاتم ابتلع الليل طرفيه فتحت باب البيت المطل على النهر وقبل أن يدخلا تشبث سعيد بيدها وجعلها تتوقف قال لها ساهرة انتظري لحظة تذكرت شيئا سمعت في صوته رنة فرح ماذا تذكرت تكلم وانتظرت متلهفة متفائلة قال لها تذكرت الآن عندما كنت عندما كنا نتسلل من البيت أنا و..أنا و..قالت تجره الى دنيا الناس والذكريات القديمة أنت وأخوك سالم قال لها نعم وأنت نائمة في الحجرة فننزل الى النهر نسبح مع الأولاد حدقت الى وجهه الجذل مستبشرة قال متابعا وكنت أنت وكنت أنا أغضب منكما نعم كثيرا وجهك أتذكره يصير مثل الطماطة يضحك بمرح كان ذلك في أشهر الصيف قالت تستحثه وماذا تتذكر أيضا أتذكر وبان عليه الشرود بغتة وتصلبت ملامحه وقال لاشيء لا أتذكر شيئا حاول يا ابني حاول لا أستطيع كان ذلك من زمان بعيد لا يا ولدي ليس بعيدا صدقني فأنت لا تزال صغيرا

"ولكنه نظر الى وجهي وفي عينيه تلك النظرة التي تقتلني وقال لا كان ذلك قبل أن أولد بزمن طويل وأضاف بعد لحظة صمت عيناه تحدقان

الى النهر الماء أسود الآن كان صافيا نظرت اليه متضرعة أصابعي تضغط على ذراعه أحاول أن أتشبث بوعيه وأمنعه من أن ينحسر مرة أخرى قلت له الماء أسود بسبب الليل ولكن عندما تشرق الشمس فجر الغد سيشرق وجه دجلة أيضا ويصبح مثل آلاف المرايا وسوف ترى الا أنه صاح بعناد طفل مشاكس لا تحاولي خداعي وأفلت ذراعه من قبضتي وسارع بالاختفاء داخل البيت!

٩

ليس سوى الظلام والصمت ووقع خطاها في نفق طويل لا نهاية له ولا بصيص ضوء يلوح من بعيد ليبعث في نفسها الأمل ولا تيار هواء يدل على منفذ تخرج منه لاشيء غير الصمت والظلام يحاصرانها من كل جانب ووقع خطاها المتسارعة وسط السكون المطبق على المكان وهي تمشي وتمشي والنفق معبأ بدخان حرائق تشتعل في مكان ما فهي تشم رائحة أخشاب تأكلها النيران ربما هي أشجار تحترق تحس بوهج النيران المستعرة تلفح وجهها المحتقن والناضح بالعرق الا أنها لا تستطيع أن تشاهد الحرائق ولا تسمع زمجرتها وهي تأتي على بساتين النخيل لا تدري لماذا افترضت أنها بساتين نخيل أخذت تركض مرعوبة اذ داخلها احساس بأن حياتها في خطر ثمة شيء مجهول يتهددها غير النيران وأن عليها اذا أرادت النجاة أن تفلت من حصار هذا النفق المشؤوم تركض حافية محلولة الشعر شبه عارية لا ترتدي غير ثوب ممزق وتكتشف مذعورة وهي تواصل العدو مسرعة أنها في الحقيقة ما كانت تبرح مكانها كانت الأرض تنزلق تحت قدميها الراكضتين بالسرعة نفسها ولكن في الاتجاه المعاكس وكأن قوة غامضة قوة رهيبة مسيطرة على مصائر البشر تريد أن تمتحن قدرتها هي ساهرة المطلوب على الاحتمال

والصبر اذ كلما كانت تسرع أكثر في ركضها المجنون كانت تلك القوة المهيمنة تقوم بتعجيل السرعة المعاكسة لأرضية النفق تحت قدميها حتى تتساوى السرعتان سرعتها وسرعة الأرض الهاربة ويضنيها الجهد المبذول بلا جدوى فتتوقف عن محاولة المضي الى الأمام للافلات من حصار النفق بحرارته ودخانه ويغدو همها الوحيد هو أن تحافظ على سرعتها مساوية لسرعة هروب الدرب من تحت قدميها الراكضتين لكي لا تأخذها الأرض معها في الاتجاه المعاكس وتسحبها الى أغوار النفق المجهولة غير أن هذه الأمنية أيضا تغدو حلما اذ تبدأ الأرض تزيد من سرعتها هي أيضا ويزداد احساسها بالتعب و تشعر بشريط الدرب المتحرك يأخذها معه الى الوراء يأخذها مسافة خطوة ثم خطوتين ثم ثلاث وهي تصارع منحنية بجذعها ذراعاها مشبوحتان الى الأمام تسبقانها تحاولان أن تتمسكا بأي شيء يساعد الجسم المنهك على الثبات ولكن لا شيء أمام الذراعين الباحثتين غير الفراغ المعبأ بالدخان ورائحة الحرائق وتوشك أن تستسلم وتخر ساقطة على الأرض وتجثو على يديها وركبتيها أمام جبروت ذلك الممتحن المجهول الذي لا يرحم والذي كان ربما يختفي وراء الحجب في تلك الساعة يترقب انهيارها النهائي وتوشك أن تيأس وتترك الدرب يرجع بها الى بداياته أو الى نهاياته ما عادت تدري غير أن خاطرا يباغتها وسط دوامة العذاب والحيرة خاطرا ينبؤها بأن ما تعانيه ربما كان واحدا من كوابيسها الغريبة نعم أن ما تعيشه الآن هو كابوس ولا يمكن أن يكون حقيقيا لا ليس حقيقيا ويبدأ الدخان بالانحسار وتهدىء الأرض من ركضها المجنون ثم تتوقف كأن الكائن المجهول أنهى اختباره أخيرا بعد أن عرف حدود قدرتها على تحمل العذاب الا أن ثمة

صوتا كان يستغيث من مكان قريب ويهتف باسمها ساهرة! ساهرة! والسرير يختض تحتها ما هذا ألم ينته الكابوس اللعين!؟ "حين فتحت عيني رأيت أن الذي كان يختض هو جسد زوجي النائم على الجانب الثاني من الفراش متشبثا بالغطاء أسنانه تصطك وعيناه تنظران الى وجهي باستغاثة" أثار قلقها مشهد عينيه المفزوعتين ووجهه الشاحب فنسيت لحظات رعبها داخل النفق هبت جالسة وضعت راحتها على جبينه المبلول وجدته باردا حمدت الله أن زوجها لم يكن محموما. قالت له مضطربة ماجد ماذا بك!؟ أنت تختض! تمتم غطيني! رفعت ذبالة الفانوس فانكمشت الظلال وبانت ملامح الموجودات من حولها. هرعت الى الخزانة وأخرجت دثارا غطت به جسده. ثم جاءت بمنشفة صغيرة وراحت تجفف العرق عن وجهه ورقبته. سألته بماذا تحس!؟ ما الذي..!؟ "وانحنيت عليه أنظر الى وجهه حائرة لا أدري ماذا أفعل. سيارته أمام الباب غير أنني ما كنت أعرف كيف أقودها، واذا خرجت أبحث عن طبيب في مثل هذه الساعة من الليل فمن هذا الذي يجازف بحياته ويأتي معي!" أرادت أن تعرف ما الذي يؤلمه فطلب منها أن تمسك بيده. مدت يدها تحت الغطاء وبحثت عن يده على الفراش لكنها لم تجدها كان يحشر يديه بين فخذيه ليدفئهما فبقيت يدها مترددة لكنه أخرج لها يدا فاحتضنتها بيدها الدافئة ونامت اليدان متشابكتين تحت الغطاء، يده المقرورة ويدها الدافئة. وأحست بيده تتوقف عن الارتجاف وتهدأ في راحتها مطمئنة. قالت له هل أصنع لك شايا تدفىء به جسمك فرد بخجل كأنه يعتذر لا شكرا فقد انتهت. سألته حائرة ما هي هذه التي انتهت!؟ نظر اليها مرتبكا ثم قال الرجفة انتهت. هل أراد أن يقول شيئا آخر؟

وكيف تشعر الآن؟ قال لها أحسن. خففي الغطاء. أرادت أن تفلت يدها لترفع الدثار الا أنه ظل متشبثا بيدها. لا. لا تتركي يدي! حيرها سلوكه. رمت المنشفة الصغيرة على الوسادة وسحبت الدثار، في حين بقيت يدها الأخرى تمسك بيده تحت الغطاء. قالت ساخطة هذا الماء الملوث هو السبب! حدق الى عينيها. بدا مرهقا. قال ربما، وأغمض عينيه تاركا خطين لامعين من مقلتيه يلوحان بين الأهداب المتباعدة قليلا. سحبت يدها من قبضته برفق، وتركت السرير أعادت الدثار الى الخزانة وأنزلت ذبالة الفانوس فسقطت غلالة الظلال عليهما وعلى أثاث الغرفة وجدرانها. صعدت الى السرير مرة أخرى، وتمددت في المكان الذي اعتادت أن تتركه خاليا بين جسديهما، فالرجل مريض الآن ولا يفكر بنزوات الجسد. "وبدا لي أنني سمعت صوتا خفيضا، وراء الباب الموصد، صوت يد تتحرك على خشب الباب، لكن لا كنت واهمة فسعيد يرقد في فراشه والبيت ساكن تماما. في هذه الأثناء دوت في الخارج طلقتان بين الواحدة والأخرى نحو ثانية فهاجت الكلاب الضالة وملأت الليل بنباحها الحانق حتى تعبت فانطفأت أصواتها، وعاد الصمت يهيمن على الدنيا. "وتأملت في العتمة وجه زوجي في سكونه المستسلم على الوسادة كأنني أكتشفه من جديد. ماذا تعني هذه النوبة التي ألمت به الليلة!؟ أتراه يعاني من مرض يخفيه عني، لكي لا يشغلني بهمومه!؟ وداخلني احساس موجع بأنني ظلمته معي وأنني مقصرة في حقه ولكن ماذا أفعل وابني سعيد لايزال مثل قنبلة موقوتة تهدد بالانفجار في أية لحظة!"

١٠

"مرة أخرى وجدتني أجلس أمام ذلك الطبيب المعتوه، الذي استراح في كرسيه الدوار مرتديا بدلته الكحلية نفسها وربطة عنق زرقاء، وبين أصابعه القصيرة تنتصب سيجارته التي لا تنتهي، صلعته النظيفة تلمع في الضوء الساقط عليها، من خلال النافذة وراء ظهره. لم يشعل شموعه بعد، فبينه والغروب نحو ساعتين. ورأيت ذلك الجاسوس الذي يتلصص على أسرار الناس ينبطح على ظهره بجوار التلفون. فكرت بابني سعيد ينتظر في الصالة تحت رقابة السكرتير." الطبيب أراد أن يراها هذه المرة قبل ابنها. سألها أين وصلنا في جلستنا السابقة؟ لم ينتظر ردها. مد يده الى جهاز التسجيل وأجلسه على كعبه وجعله يتكلم. "وسمعت صوتا غريبا لم أتعرف عليه أول مرة يتحدث عن تفاصيل حياتي." عندما نطق الجهاز بكلماتها الأخيرة ضغط الطبيب على زر، وهيأ رقيبه للانصات، ثم التفت اليها. اذن فذلك الرجل الغريب الذي غدا زوجك قال لك ان أخاك سوف.. قالت له نعم. قال انه سوف يتذكر حين يرى البيت وأشياءه الأليفة. وهل عاد اليه وعيه وتعرف عليك حين عدت به الى البيت وشاهد أشياءه الأليفة؟ لا. ظل ينظر الى الجدران وأبواب الغرف وقطع الأثاث بعينين شاردتين، وبدا الرجل الذي

حملنا معه الى البيت، والذي غدا زوجي في ما بعد حائرا. نظر الى ساعته ونصحني أن أدع ابني يستريح من تعب الطريق الطويل. ربما عاد اليه وعيه بعد أن ينام. وبعد شيء من التردد أضاف سوف أزورك غدا لأرى ان كان بوسعي أن.. ونظر الى وجهي ينتظر أن أقول شيئا. سألها الطبيب وماذا حدث بعد ذلك قالت له وجدتني أميل اليه بسبب رغبته في مساعدة الآخرين، وأيضا بسبب مسحة من الحزن لمحتها في أغوار عينيه. كان ذلك شيئا جديدا في حياتي قصدي أن أميل الى رجل غريب ألتقيه بالمصادفة في الطريق! رأت الطبيب يبتسم. قال سؤالي هو ماذا حدث بعد ذلك في حالة أخيك؟ هل تعرف عليك بعد أن استراح من تعب الطريق؟ عفوا. ظننتك سألت عن..نعم ابني تعرف علي في النهاية ولكن ليس قبل مرور اسبوع. كنت أجلس معه أكلمه كل يوم أحاول أن أعيده الى دنيا الأحياء. وفي أحد الأيام كنا نجلس على التخت في الصالة وأنا أميل بوجهي صوبه أكلمه رأيته يرفع يديه مترددا ويتحسس بهما وجهي. انتظرت متلهفة وأصابعه تتحسس وجهي في لمسات حذرة كأنه يخشى أن يخدش بشرتي بأنامله المستكشفة. غمرتني البهجة، بواكير بهجة مهددة بالتلاشي في أية لحظة، وأنا أشعر ببرودة أصابعه تحط على وجهي ثم ترتفع، مثل عصافير مرتعبة، فابتسمت لعينيه المحدقتين أشجعه، وقربت منه صفحة وجهي كي يستكشفه بحرية. وتشجع أخيرا وحطت أصابعه كلها على وجهي، وراحت تطوف فوق الجبين، على حوافي العينين والفم، ثم أحاطت راحتاه بالوجه كله تقيس أبعاده، مثلما يفعل أعمى يحاول أن يتعرف على ملامح انسان عزيز. وران على المكان صمت مترقب حائر. وساءلت نفسي في مزيج من

الاثارة والأمل. ترى هل عادت اليه الذاكرة أخيرا!؟ هل عادت اليه!؟ الله كم بدت طويلة تلك اللحظات وأنا أنتظر! ثم شاهدت الومضة في عينيه ودموعه تنزل ويداه في هذه الأثناء تضغطان على وجهي بقوة أوجعتني، ولكنني كنت سعيدة، وان سحق وجهي بين يديه.

بعد ذلك أدار رأسه ليخفي وجهه عني، وسمعته يجهش، فثمة شيء تفجر في داخله بغتة، وشاركته البكاء. كنت أبكي من السعادة ومن خليط من الأحاسيس الأخرى. لحظة واحدة! قال الطبيب يوقف سيل كلماتها. وضع سيجارته على طرف منفضة الرماد الخالية، وتناول قلما كتب به بضع جمل على ورقة، ثم ترك قلمه فوق الورقة ونظر اليها. كانت الشمس تلون جدران الأبنية وراء النافذة، الا أن ضوء الشمس كان باهتا تعكره سحب من الغبار الأسود. قال الطبيب طيب بعد أن تعرف عليك هل أصبح سلوكه اعتياديا؟ لا، ليس تماما، والا ما جئت به اليك! ظل ابني سعيد ينسى الكثير من الأمور، ويتصرف كأنه ما يزال في قفص الأسر يأكل قليلا واذا عطش شرب جرعة صغيرة من الماء وتجمعت علي المشاكل. قبل كل شيء كان عليّ أن أدخل في اجراءات طويلة لالغاء واقعة موته. ثم كانت هناك قضية زوجته التي تزعم أنها عقدت على رجل آخر، وانجبت منه بالفعل، في الوقت الذي كان هو فيه ميتا في نظر القانون، وأيضا حضانة ولديه، ومحاولة اقناع زوجته بأن تأتي بهما ليراهما. قضايا من هذا القبيل وأنا وحدي! هز الطبيب رأسه متفهما. قالت مسترسلة وهكذا اعتمدت على ذلك الرجل الغريب الذي أصبح زوجي، فهو محام ويعرف كيف يدبر مثل هذه الأمور، وكان من الطبيعي أن يزورني بين يوم وآخر من أجل اخباري بما فعل، أو لغرض

الحصول على توقيعي على وثائق وعرائض لا حصر لها. ما كنت أتصور أن محاولة اثبات أن انسانا من الناس ما يزال على قيد الحياة يستلزم كل هذا الرواح والمجيء في حين أن موته تؤكده ورقة واحدة تكتب في دقائق! وابني سعيد في هذه الفترة يحاول أن يتخلص من العادات الغريبة لانسان عاش محتجزا سنوات طويلة محروما من حرية الكلام والحركة: الخوف والتوجس من الآخرين، وعدم القدرة على اتيان أي عمل، مهما كان صغيرا، بدون اذن من حراس القفص! كان الطبيب يأخذ أنفاسا عميقة من سيجارته المطفأة، وينفخ دخانه الوهمي في الهواء، ويصغي اليها. لكنه اخرج سيجارته، وضعها في المنفضة، وقال وهل نجح أخوك في التخلص من هذه العادات الغريبة؟ قالت له تعرف حضرتك بعض العادات يصعب التخلص منها. بدأ يأكل ويشرب بشكل أفضل بعض الشيء,وفي العصاري يخرج يتمشى وحده على ضفة النهر,وأنا أراقبه جالسة على عتبة الباب. هز الطبيب رأسه مستنكرا. قال بهذه الطريقة أنت تذكرينه بحراس قفص الأسر! أنا معك دكتور، لكنني لا أستطيع أن أتركه يخرج وحده. ربما ذهب بعيدا وأضاع طريق العودة الى البيت. مع ذلك عليك أن تراقبيه بدون أن يراك. قالت نعم، ربما. على أية حال ما كان هو يبرح مكانه. كان يروح ويجيء في حدود مسافة قصيرة، وكأن جدرانا تعترض طريقه، ان حاول تجاوز تلك المسافة. وكنت أتركه يقضي بعض الوقت في هذه الرياضة اليومية، ثم أذهب اليه ألمس ذراعه فيتوقف عن الحركة ونعود الى البيت. كانت أشعة الشمس قد انحسرت عن أعالي الجدران في الخارج، وزحفت العتمة الى داخل غرفة الطبيب. فأشار لها أن تتوقف. أخرج شموعه، أوقدها ووضع كل واحدة

في صحن فأعلن الليل مقدمه. سألها الطبيب وماذا يفعل أخوك أيضا؟ أريد أن أعرف عنه كل شيء! قالت وهي تنظر الى جهاز التسجيل في انزعاج. في بعض الأحيان يتكلم من تلقاء نفسه، يروي حكايات غريبة ومخيفة لا أدري من أين يأتي بها. مثل ماذا؟ يقول ان مخلوقات برؤوس حيوانات مفترسة تطارده وأنها أمسكت بواحد من أصحابه في الأسر وسلخت جلده وأدخلت أسياخا مشتعلة في فتحتي عينيه! وكانت حكاياه هذه تثير قلقي وكنت أحاول افهامه أنها أوهام لا وجود لها. في أحيان أخرى تراه يتحدث معك، مثل أي انسان سوي، لأكثر من ساعة أحيانا، ثم فجأة تشعر أنه انقطع عنك وراح يهذي بكلام لا معنى له! قال لها الطبيب لا يوجد كلام لا معنى له! على أية حال أنت لن تفهمي هذا وماذا بعد؟ إنه يكذب، لا أدري لماذا. ربما هذه أيضا من العادات التي اكتسبها هناك. أيدها الطبيب. قال نعم فهو يكذب لاسترضاء الحرس ربما أو لإخفاء أمر عنهم لكي لا يتعرض للعقاب. قالت على أية حال غدا أفضل كثيرا من اليوم الذي عاد فيه. وكنت سعيدة اذ كان ثمة أمل في أن يستعيد كامل وعيه مع الأيام. غير أن سعادتي لم تدم طويلا، اذ اقتحموا علينا البيت في أحد الأيام وأخذوه مني! أخذوه منك!؟

*

في صباح يوم سبت لا ينسى، في النصف الثاني من شهر آذار، وهي تجلس معه في المطبخ تشجعه على الأكل، سمعت طرقات لجوجة على باب الدار. عندما فتحت الباب رأت أمامها صبيا صغيرا من الجيران. بدا مضطربا. أخبرها وهو يلهث أنهم يبحثون عن السلاح! لم

تفهم قصده. من هم هؤلاء الذين يبحثون عن السلاح!؟ غير أن الصغير ركض مبتعدا صوب البيت المجاور. وانتبهت الى وجود عدد كبير من الجنود يقفون على امتداد الشاطىء. بين الواحد والآخر بضعة أمتار، وكل واحد منهم يحمل بين يديه رشاشة قصيرة، ظهورهم الى النهر ووجوههم تقابل صف البيوت. كانوا يقفون مثل تماثيل قاتمة في شمس الصباح، ظلالهم تتمدد طويلة على الأرض. وقفوا هناك سدا يقطع الطريق على من يحاول الهرب من داخل البيوت، ويعبر النهر الى الضفة الأخرى. تأملتهم لحظات. وجدتهم فتية بعضهم لا يتجاوز عمره العشرين عاما. رأت أفرادا آخرين، أكبر سنا، يتحركون وسط الدرب. ولمحت ثلاثة منهم يغادرون أحد البيوت. كانوا يضحكون لأمر لابد حدث في الداخل، فانتابتها رجفة هلع. كان الحي كله مغلقا، فعند المدخل الى شارع النهر وقفت سيارة نصف مكشوفة فوق سطح قمارتها انتصب مدفع رشاش ماسورته الطويلة تلوح سوداء في ضوء الشمس. كانت السيارة تقف بموازاة الشاطىء تجابه بمدفعها صف البيوت. وراء المدفع جثم رجل لم يكن يظهر من هيكله غير رأسه بقبعة الميدان ووجهه المبهم الملامح وذراع مثنية تحت الماسورة. رأت أيضا حافلة صغيرة سوداء بستائر مسدلة تقف بمحاذاة الشاطىء، على زجاج نوافذها تتكسر أشعة الشمس، وأبعد قليلا ناقلتي أفراد تقفان الواحدة وراء الأخرى في مواجهة النهر؛ الناقلة الثانية لا يلوح منها غير مقدمتها، وجانب من قمرة السائق، في حين يختفي قسمها الأكبر في منعطف الدرب، وراء الجدران. ربما كانت هناك ناقلات أخرى، فالرجال المنتشرون في الحي كثيرون. التفتت تنظر الى نهاية الدرب الممتد مع الشاطىء. رأت سيارة

مسلحة تسد الطريق. كان الحصار كاملا. شاهدت مجموعات صغيرة من النساء والرجال والأطفال، كل مجموعة تقف أمام باب دار، ملمومة على نفسها، أفرادها يتهامسون رؤوسهم تتلفت بحذر، وأيديهم تؤشر في حركات مقتضبة. مدت بصرها تستكشف الضفة الأخرى من النهر. بدت الشمس في عنفوانها فوق سطوح البيوت على ذلك الجانب. ومن بين الجدران ارتفعت رؤوس الأشجار الخضر، وصعدت جذوع النخيل الدكناء سعفها يتهدل فوق أعالي السطوح، وانتصبت المنائر والقباب اللامعة بين الأحياء المكتظة، ولاح لها كل شيء ساكن هناك، كأن ذلك الجانب من النهر ما يزال ينتظر دوره. النوارس الصاخبة فوق النهر كانت وحدها تخفق باجنحتها في الهواء بحرية، ترتفع وتنخفض فوق سطح النهر المضاء بالشمس، نقاطا صغيرة تبدو ناصعة البياض، عندما تخطف في ظلال البيوت الساقطة على الجرف، وتحلق فوق مستطيل ظليل من النهر عند الضفة الأخرى من دجلة، كائنات صغيرة تطير بلا مبالاة تثير الحسد. رنت الى الجسر الحديدي الجاثم على خاصرة النهر. لمحت عددا من السيارات تمر فوقه، سطوحها تضيء في الشمس، في حين سقط ظل الجسر على صفحة الماء، خطا عريضا أسود وسط التيار اللامع "كان صباحا رائعا ذلك الصباح المشؤوم-الشمس والنهر ومرح الطيور والهواء الرخي- غير أن الواقفين لصق الأبواب ما كانوا يفكرون وقتها في جمال الطبيعة، بل في الحصار الذي باغتهم في أول النهار. وكنت أنا أفكر في أخطاره المحتملة على ابني!" لمحتها امرأة من الجيران تقف على عتبة الباب وحدها، فانسلت من بين أفراد عائلتها، وجاءت اليها تمشي بمحاذاة الجدار تتلفت خائفة. قالت لها أطفالي منعوهم من الذهاب الى المدرسة،

وزوجي الذي كان في طريقه الى الدائرة أمروه بالعودة الى البيت. تصوري! أخبرتها أن صبيا من الجيران قال لها انهم يبحثون عن.. نعم، فهم يبحثون عن السلاح. هذا ما قاله لنا أيضا. وقفتا بعد ذلك ساهمتين، متجاورتين، ترقبان الدرب الذي بدا خاليا من المارة، تفترشه الشمس، وتخططه ظلال الفتية المسلحين، الذين وقفوا بدون حراك، عيونهم ترقب البيوت، وأهلها الملمومين أمام الأبواب. أما فرق التفتيش، التي كانت مؤلفة من ثلاثة أو أربعة فتية يقودهم رجل أكبر منهم سنا، فكانت تختفي آنذاك وراء جدران البيوت. بدت جارتها مضطربة. قالت لاندري ماذا يفعلون في الداخل! وفكرت هي في سعيد. وقفتا منشغلتين بهواجسهما، لا تسمعان صخب النوارس فوق النهر. ثم حانت التفاتة من جارتها فرأت زوجها، الذي بقي يقف مع أطفاله، يشير اليها. كان الرجل ما يزال يرتدي بدلته النظيفة التي كان يعتزم الذهاب بها الى دائرته، حقيبة أوراقه في يده. شاهدت عددا من الأفراد المسلحين يمشون وسط الدرب ترافقهم ظلالهم. هتفت جارتها في خوف: وصلوا الينا! وسارعت بالعودة الى بيتها. انسحبت هي أيضا من الطريق. "أغلقت الباب ثم مضيت الى حجرتي. أخرجت شهادة وفاة ابني سعيد، التي جاء بها الينا ذلك النذل، وبعض الأوراق التي تشير الى عودته، وضعتها فوق جهاز التلفزيون في الصالة. ربما سألوني عن سبب وجوده في البيت، وهو لا يزال في سن الخدمة في الجيش. بعد ذلك ذهبت اليه." جلس ينتظرها في المطبخ. لم يتحرك من مكانه طوال الوقت، وصحن الطعام أمامه. كلمته بحنان وابتسمت في وجهه، كي لا تثير مخاوفه. "أخبرته بما يجري. أنت لا تخف منهم، فهم جنودنا ولن يفعلوا لنا شيئا،

مادمنا لا نخفي في بيتنا سلاحا. المهم أن لا تتكلم أنت معهم. دعني أنا أتكلم..زين؟" هز رأسه موافقا. نظرت اليه بارتياح، وطلبت منه أن ينهي طعامه، الا أنه كذب عليها. ادعى أنه أكل حين كانت تقف مع جارتها أمام الباب، مع أن صحنه لم ينقص كثيرا. قالت له اذن أغسل يديك وفمك قبل أن يجيئوا فأطاعها. وشغلت نفسها برفع الأواني وترتيب المطبخ. حين فرغت راحت تتنقل في أرجاء البيت في حركات تائهة، في حين كان سعيد الذي غادر الحمام يقف وسط الصالة ينظر اليها صامتا. حاولت اخفاء اضطرابها عنه. أمسكت بيده. تعال! دعنا نجلس هنا على التخت أحسن. سألها ألن يفعلوا لنا شيئا اذا رأونا جالسين على التخت؟ لا. لن يفعلوا لنا شيئا. في تلك اللحظة سمعت الطرق على الباب. جفلت! لم يكن الطرق مباغتا أو عنيفا، طرقات زائر منتظر، الا أنها ارتعبت. أراد سعيد أن يصحبها الى الباب لكنها طلبت منه أن لا يتحرك من مكانه. "عندما فتحت الباب وجدت أمامي أربعة أشخاص، ثلاثة منهم في أعمار صغيرة، صبية تقريبا، يبدو السلاح غريبا بين أيديهم الناعمة. أما الرابع فكان في نحو الثلاثين، رأيته واقفا أمامي على عتبة الباب رشاشته بيده ماسورتها نحو الأرض، وراؤه وقف الآخرون أسلحتهم جاهزة للاطلاق، وعيونهم تقتحم وجهي." حياها الرجل بلطف. ثم سألها ان كانت تسمح لهم بالدخول؟ كان يبتسم، وبدا مهذبا. مع ذلك ظلت متوجسة وهي تتراجع الى داخل البيت تفسح لهم الطريق. دخل الرجل وتبعه الأفراد واحدا بعد واحد، يتلفتون بحذر، ويحدقون الى الأبواب كأنهم يدخلون وكرا لعصابة خطيرة. "كانت غرفة ابني سالم الذي مات في الأسر ما تزال مقفلة، على الأشياء التي تركها وراءه. لم أجد

الجرأة على فتحها" في هذه الأثناء تقدم كبيرهم نحو ابنها. نهض سعيد عن التخت، ووقف ينظر اليه. سألها ومن هذا الشاب الذي عندك؟ قالت له هذا ابني، وذهبت ووقفت بجوار ابنها وأمسكت بيده. قال الرجل مندهشا "هذا الرجل الطويل العريض ابنك أنت!؟" عينا الرجل المرتابتان اخترقتا عينيها. قالت هو ابني وأخي. ما هذا الكلام يا امرأة! وتبدلت نبرة صوته. ما عاد ذلك الرجل المهذب الذي ظنته في البداية. قال لها بوقاحة "لا يمكن أن يكون ابنك وأخاك في وقت واحد، الا اذا كنت تضاجعين أباك! "وددت في تلك لحظة لو قتلته، الا انني جاهدت لأسيطر على أعصابي. قلت له "انه أخي الذي رعيته كأنه ابني". تطلع سعيد الى وجهها حائرا. أحس التوتر في الهواء من حوله، وهذا ما أخافها. لكن الرجل خفف قليلا من حدة لهجته. قال "هكذا اذن! ولماذا هو هنا!؟ أهو هارب من الخدمة؟" وأرعبتها النظرة التي رمق بها ابنها. "لا، ليس هاربا." أفلتت يد سعيد، وسارعت تحضر الأوراق من فوق جهاز التلفزيون، وتمد بها يدها الى الرجل، الذي راقب صامتا حركاتها المضطربة. "كان شهيدا! قصدي وحدته العسكرية أعلنته ميتا..وبعد سنوات ..كل شيء مكتوب عندك في الأوراق!" عادت تمسك بيد ابنها عيناها القلقتان تتابعان الانطباعات المتغيرة على وجه الرجل,وهو يقلب في الأوراق، يتمعن فيها، ويرنو الى وجه سعيد بين وقت وآخر، في حين وقف الأفراد وراءه ينتظرون أوامره. طوى الرجل الأوراق أخيرا وأعادها اليها. قال طيب اسمحي لنا الآن بتفتيش البيت، والتفت الى أتباعه يوجههم فتوزعوا على الغرف. سألها "وما هذه الغرفة المغلقة!؟" قالت له هذه غرفة اب..غرفة أخي سالم. استشهد هناك في الأسر". أمرها أن

تفتحها. أحضرت المفتاح وفتحتها. وعلى الفور فاحت من جوف الغرفة رائحة هواء راكد، وأثاث قديم مهجور. صاح على واحد من الفتية المسلحين وأمره أن يفتشها. انسحب سعيد وجلس منكمشا على نفسه على طرف احد التختين في الصالة. نظرت اليه وابتسمت تخفف عنه ضغط ما يجري. "ارتحت كثيرا حين وجدته يتصرف بهدوء ولا يفتح فمه." عادت ترقب الرجل والفتى ينقبان في مخلفات ابنها المرحوم سالم، ويقلبان حاجاته المنسية. لم يكن في الغرفة الشيء الكثير..ما يوجد عادة في غرفة رجل أعزب لا يهتم بنفسه كثيرا. عندما فتح الرجل الفراش الذي كان مطويا تصاعد غبار، في الحقيقة كل شيء كانوا يحركونه كان يثيرغبارا في فضاء الغرفة المعتم. "وأحسست بوجع رحيل سالم، كأنه مات في تلك اللحظة. وبدا الوجع أكثر ايلاما، وأنا أرى أشياءه الشخصية تبعثر على الأرض بإهمال: قمصانه، بنطلوناته، صوره وصور أصدقائه، رسائله وحاجاته الأخرى. ولم أفهم علاقة النبش في هذه الأشياء الصغيرة بالبحث عن السلاح!" بعد أن فرغا من فحص كل شيء، غادرا غرفة الشهيد سالم، والرجل ينفض بيده الطليقة الغبار عن ثيابه. قال لها "والآن دعينا نفتش غرفة نومك". مشت أمامهما مترددة، وسعيد ينظر اليهما يتبعانها الى غرفة نومها. لمحته يتململ، الا أنه لم يبرح مكانه، فتمنت لو بقي هكذا، في جلسته الساكنة على التخت في الصالة. وضع الرجل رشاشته على الفراش، فوق وسادتها، قطعة من الحديد الأسود تمددت بشكل مائل فوق بياض الوسادة، في المكان الذي تضع فيه رأسها لتستريح في الليل. رأت الرجل يمضي، بعد ذلك، صوب النافذة ويزيح الستارة جانبا فتدفقت أشعة الشمس، سقطت على منضدة

الزينة وتكسرت على المرآة، وانتشر الضياء في داخل الغرفة كاشفا للعيون الغريبة عن رداء نومها، ومنامة زوجها ومنشفته معلقة على المشجب في الزاوية. هرعت لتخفيها في خزانة الثياب. لكن الرجل أمرها ألا تحرك شيئا! وباشرا التفتيش، كما فعلا في غرفة ابنها سالم. لم يترك الفتى سلاحه,كما فعل رئيسه. ظل يقبض عليه بيد، وينبش في محتويات الغرفة بيده الأخرى. وقفت واجمة تتأملهما يقلبان كل شيء، والرجل ينظر اليها ,ليرى ما يطرأ على وجهها من تغيير. غير ان الانطباع على وجهها لم يتغير- كان تعبيرا عن غضب مكتوم، وشعور بالمهانة. بدا لها الرجل مستمتعا بتعرية الجوانب الخفية من حياة الناس، واقتحام المخادع، والتنقيب في خزائن الثياب، وتحسس ملابس النساء الداخلية والتحديق فيها، وقبل كل شيء رؤية الخوف في عيون الآخرين. فرغ الرجل، والفتى الذي معه، من تفتيش جميع الزوايا والأركان في غرفة نومها: نظرا تحت الفراش، تحت السرير، تحت البساط، في خزانة الثياب وخلفها، فتحا الأدراج في طاولة الزينة، نبشا في حقائب اليد، وفي النهاية يئسا من العثور على شيء يمكن أن يكون مريبا، فأزاح الرجل رشاشته السوداء عن بياض وسادتها، وترك الغرفة يتبعه الفتى حاملا سلاحه، مخلفين وراءهما فوضى من الحاجات المبعثرة في أرجاء الغرفة. الشابان الصغيران وقفا ينتظران في الصالة بعد أن أكملا مهمتهما. رأت سعيد يقف معهما، وكان يقول شيئا وهما يضحكان "فداخلني الخوف. الا أنه سكت حين رآني" وسأل الرجل الشابين ان كانا عثرا على شيء. فقالا له انهما بحثا في كل زاوية فلم يجدا شيئا. "قلت لنفسي سوف يغادرون الآن، ونبقى أنا وسعيد لا يزعجنا أحد!" وانتظرت

أن يتحرك الرجل، ويتبعه الآخرون، لكنه ظل يقف وسط الصالة مترددا. رأته يطيل النظرالى وجهها. ربما أزعجته نظرة الكراهية الكامنة في أغوار عينيها، برغم محاولتها الحفاظ على وجه محايد. "ما كان ينبغي أن أنظر اليه بذلك القدر من المقت!". أشاح بوجهه عنها والتفت الى ابنها، الذي وقف ينظر اليه خائفا. دنا منه، ووضع كفه على كتفه، وسمعته يكلمه بمودة. "أخ سعيد، أنت انسان شهم! ما أريده منك الآن هو أن تخبرني بصراحة في أي مكان تخبئون السلاح؟" نظرت الى وجه سعيد مرعوبة، فهو قد يقول أي شيء يخطر بباله. "رأيته يبتسم، وأفزعني مشهد تلك الابتسامة الغريبة. الا أنه لم يتكلم." قال له الرجل "لا تخف. لن نفعل لكما شيئا، أنت وأختك. سوف نأخذ السلاح منكما ونعطيكما به وصلا. وهذا هو كل شيء. صدقني!" عاد الرجل يتكلم بنبرة مسالمة، وعيناها القلقتان تتعلقان بوجه سعيد. قال الرجل يشجع ابنها على الكلام. أنا متأكد أن بيتكما ليس خاليا. أنت فقط دلني على المكان ولك مني جائزة كبيرة! "وسمعت مصعوقة ابني سعيد يقول للرجل ان السلاح الذي تبحثون عنه تحتفظ به في غرفتها!" صحت به "من أين جئت بهذا الكلام!" وأسقط الرجل يده عن كتف سعيد والتفت اليها. "اذن السلاح عندك في الغرفة، وأنت تتظاهرين بالبراءة!" قالت له "أستاذ، أنت تصدق مثل هذا الكلام. هو من عادته يخلط بين الأشياء!" وتحركت من مكاني، ووقفت وراء ظهر ابني، وحركت أصابعي بالقرب من رأسي، لأفهم الرجل أن سعيد ليس في كامل وعيه، غير أنه لم يكترث لاشارتي تلك!" وعاد ينظر الى ابنها. "أنت رجل يحب وطنه. والآن قل لي أين هو؟" رأت سعيد ينظر اليها مترددا. قال له الرجل "لا

عليك منها. قل لي فقط في أي مكان من الغرفة." قال سعيد "انها تحتفظ به في سريرها منذ جاءت به وهي تحتفظ به في سريرها. "ضحكت من قهري. ألا يرى هذا الرجل أن ابنها يعبر عن أوهامه!؟" قلت له "أخي أنتم بحثتم في كل مكان من الغرفة!" لكن الرجل تجاهلها. سأل ابنها أنت تقصد أنه مدفون تحت السرير. قال سعيد هي تحتفظ به بجوارها عندما تنام في الليل. "كان ابني يتحدث عن أمر آخر يزعجه، وهذا الرجل المتسلط يفسر كلماته بالشكل الذي يريد". قال اذن هي تضعه بجوارها في الليل، وفي الصباح تدفنه تحت السرير! "وسمعت الرجل يصدر أوامره لأحد الفتية. "بسرعة. ثلاثة أو أربعة من الشباب، وأدوات حفر!" فركض أحد الفتية المسلحين الى الخارج.

*

سلوك الطبيب بدا غريبا. رأته يبتسم، وهي تروي له، بايجاز، ما جرى في ذلك اليوم المشؤوم. نهضت منزعجة، وهمت بالخروج، فأخرج سيجارته الباردة من فمه، ونظر اليها مندهشا. "لماذا نهضت!؟" قالت له "أراك تهزأ بي. كأنك لا تصدق ما أقول، فأنا أتكلم عن محنة عشناها وأنت تبتسم!" قال لها ألا تبني أحكامها على ما يلوح على وجوه الناس "فأنا لم أكن أبتسم. اجلسي، وأكملي حكايتك." جلست. "وماذا حدث بعد ذلك؟ هل حفروا غرفة نومك حقا؟" عادت ذاكرتها تركض بها الى الوراء، والمشاهد تزدحم في رأسها. رأت الرجل يقتحم غرفة نومها، مرة أخرى، يجر ابنها من ذراعه، يتبعه الآخران. وقفت عند باب الغرفة، تستند بكتفها الى احدى القائمتين ترقب ما يجري أمامها في قنوط، فما كانت تراه يشبه أحداث كابوس غريب مخيف. تظل

واقفة في مكانها مشلولة الحواس تقريبا، تنظر صامتة وهم يتحركون داخل غرفة نومها. ترى الشابين الصغيرين يتعاونان على حمل سريرها من مكانه، ويضعانه لصق الجدار، تحت النافذة المطلة على الطريق وعلى النهر. ويتكشف مربع مستطيل من البساط كان يختفي تحت سريرها، ويبدو المستطيل بلون مغاير تغطيه طبقة كثيفة من الغبار. وتكتشف حاجات مهملة أو ضائعة: زوج حذاء قديم، كل فردة في جانب، حقيبة يدوية ممزقة الحوافي، فردة نعل واحدة، مروحة خوص ملونة افتقدتها منذ زمن بعيد، ولا تدري كيف وصلت الى هذا المخبأ. دفع الرجل كل هذه الأشياء بطرف حذائه بعيدا، ثم أمر تابعيه برفع البساط. عندئذ تعرى البلاط لامعا في ضوء الشمس المنعكس من سطح المرآة. نظر الرجل الى الأرضية بعينين فاحصتين. كانت الأرضية سليمة، لا أثر فيها لأي خدش. التفت الى ابنها بارتياب. سأله هنا؟ في هذا المكان؟ هز ابنها رأسه. ولكن لماذا يفعل هذا بها!؟ كأنه يريد أن ينتقم منها. تسمع في هذه الأثناء دربكة خطى متعجلة وراءها. ترى ثلاثة فتية يدخلون البيت مهرولين، يحملون معاول ورفوشا، يتقدمهم الفتى الذي ذهب لاحضارهم. سارعت بالابتعاد عن طريقهم. وقفت بين ضلفة الباب المشرع وخزانة الثياب. أمر الرجل الفتية المسلحين الذين كانوا معه بالبقاء خارج الغرفة للمراقبة. وبدأت تسمع أصوات المعاول تكسر بلاط غرفتها، وشظايا الحجارة وقطع الاسمنت المتطايرة ترتطم بالجدران، بمرآة منضدة الزينة، بخشب خزانة الثياب، بقطع الأثاث الأخرى، وتشعر بوخزها في الأجزاء المكشوفة من لحمها. وينكشف بعد قليل ما يشبه دائرة سوداء من التراب الداكن في قلب الغرفة تحفر فيها المعاول وتنقل الرفوش التراب تكدسه

حول الحفرة التي تزداد عمقا. يحدق الرجل في الحفرة. لا يرى شيئا، لكنه لا ييأس. أمجنون هو أيضا؟ تراه يجلس على فراشها، عند رأس السرير. يبدو مستريحا في جلسته المسترخية، جذعه يميل الى اليسار قليلا مستندا الى ذراعه، كفه الكبيرة السمراء تغوص في بياض وسادتها، رشاشته تستلقي بجواره على السرير تلامس فخذه، يراقب الفتية المشغولين بالحفر، في حين وقف ابنها، الذي خذلها، عند نهاية السرير، أشعة الشمس تسقط على ظهره وتضيء جانبا من وجهه. "وددت لو استطعت أن أنفرد به لأسأله لماذا أطلقت كذبته المجنونة، وجعلتهم يمزقون غرفتي!" لكنه كان نائيا بنفسه عنها، وعن كل ما يجري. ويتكون جدار أسود من التراب حول الهياكل المنحنية الظهور، والرجل ينهض بين وقت وآخر، يصعد فوق التراب، يطل في الحفرة، ثم يعود ليجلس في مكانه، ينتظر انكشاف المخبأ. تلمح وجوها وراء النافذة، وعيونا متسائلة تحدق من خلال القضبان، ويدخل رجال غرباء آخرون غرفة نومها، يحدقون في الحفرة باهتمام، ويتكلمون مع الرجل المستريح على سريرها، وعندما يغادرون يكتشفونها تقف ساكنة لصق الجدار، بين ضلفة الباب وخزانة الثياب فيحدقون اليها بفضول، في عيونهم نظرات شك وادانة، والبعض منهم يحاول أن يجردها من ثيابها بنظراته النهمة، وهي تقف مذهولة، لا تدري كيف ومتى ينتهي هذا الكابوس المريع! رأت الطبيب يبتسم مرة أخرى. حين أمعنت النظر الى وجهه أدركت أنه لم يكن يبتسم، انما كانت تنتابه، وهو يستمع الى حكايتها، حالة من التشنج العصبي تجعل شفتيه تتقلصان بشكل يجعله يبدو كأنه يبتسم ساخرا من كلامها. ويتحرك المشهد داخل رأسها من

جديد. هي الآن تمد بصرها الى الخارج، من خلال قضبان النافذة، من فوق الوجوه المتطفلة الى حيث الفضاء الأزرق المضاء بالشمس. ترى واحدا من المسلحين الذين يحرسون الشاطىء، والتماع الماء في النهر، وقطعة من سماء مفتوحة تتخاطف فيها النوارس فوق دجلة، وشريطا من بيوت بعيدة تلوح ساكنة. ولكن من يدري، لعلهم ينبشون في الحجرات، على الضفة الأخرى أيضا! يشير الرجل الى ابنها أن يقترب. "وشعرت بقلبي يخفق مجنونا!" ماذا يريد من سعيد!؟ سمعته يسأله "قلت انه مدفون تحت سريرها، فأين هو!؟ "أنظر الى وجه ابني قلقة. أراه يفيق من شروده، ويرنو الى الرجل، لكنه لا يتكلم." يلتفت الرجل الى أتباعه ويصيح بهم في حنق "احفروا أعمق! خلونا نشوف!" وبدأت تتوجس شرا، فالرجل نفد صبره، وفي عينيه وعيد. وتواصل المعاول الضرب في التراب، وتهبط الهياكل في الحفرة التي غدت مثل قبر عميق، ولا تعود ترى غير أجزاء من سواعد سمر دائبة الحركة، وكتل من تراب أسود تنفصل عن أكف الرفوش، ثم تهوي مبعثرة فوق جدار التراب المحيط بالحفرة. ولا تبقى في غرفة نومها فسحة أرض خالية، فالتراب يغطي البساط الآن، وينتشر فوق قطع الأثاث وتحتها، ويلامس قدميها، وقدمي ابنها، وحذاء الرجل الجالس على سريرها، ويصل الى الجدران، وتند من داخل البئر رنة غريبة تعلو بين لهاث الأفراد، والأصوات المكتومة لضربات المعاول والرفوش، في التربة اللينة. يهب الرجل ويقول مستبشرا. بهدوء! احفروا بهدوء! وصلنا أخيرا! " وتتسارع دقات قلبها. "ترى ما الذي تختزنه الأرض من خبايا تحت سريري!" تغادر مكانها وتتسلق جدارالتراب هي أيضا. ترى ابتسامة ظفر على شفتي الرجل كأنه

يعلن متحديا ماذا تقولين الآن! ولكن هذا مستحيل! حتما ليس ما عثروا عليه سلاحا! ولكن ماذا يمكن أن يكون!؟ ترى الفتية يزيحون غشاء التراب بحذر فيتكشف من بين سواد الأرض سطح جسم كروي أبيض يميل الى الاصفرار أحدثت فيه ضربة أحد المعاول كسرا يشبه ثغرة مظلمة. ولكن ما هذا!؟ يتساءل الرجل في خيبة. يقول له أحد الأفراد وهو يرفع اليه وجهه الناضح بالعرق. انها جمجمة سيدي! يحدق الرجل الى الرأس الأبيض المصفر، ثم يستدير الى ابنها غاضبا. "أهذا هو السلاح!؟" أنا أيضا فوجئت. ما كانت تدري، وهي تنام مطمئنة كل ليلة، أن تحت سريرها قبرا! ولكن لمن هذا القبر!؟ ولماذا في غرفة نومها!؟ "أهذا هو السلاح الذي قلت انه مدفون تحت سريرها!؟" كان الرجل يخاطب سعيد محتدا. "شحب وجه ابني، وخفت عليه من غضب الرجل، الذي كان يظن أنه خدع، وأن ابني سخر منه!" ويصيح صوت من داخل الحفرة. سيدي، وهذه أضلاع وعظام أخرى! شاهدت الفتية يقرفصون في قاع القبر، ويزيحون بأكفهم غشاء التراب الأسود الندي عن بياض العظام. داخلها الهلع لبعض الوقت حين سمعت ذلك الصوت الناشز يند من عتمة الحفرة، أما الآن فهي ما عادت خائفة، فماذا تعني بضعة عظام بالية لميت مجهول، غير أن موقف الرجل من ابنها بات يفزعها. تراه يقف فوق التل الأسود يمسح وجهه براحته، متنقلا بنظراته الحانقة بين وجهها ووجه ابنها الشاحب. تسمعه يأمر رجاله. "أخرجوا العظام كلها! نأخذها معنا للفحص. لعل جريمة ارتكبت في هذا البيت!" أتراه يحاول مداراة خيبته!؟ مع ذلك فأن كلماته أثارت في نفسها المخاوف من جديد. يخرج الفتية من الحفرة يحملون بين أيديهم العظام

المصفرة، والجمجمة المثقوبة. يتناول الرجل وسادتها، ينزع عنها غطاءها، ثم يفعل الشيء نفسه مع وسادة زوجها. يعطي الغطاءين المطرزين الى أتباعه. "ضعوا العظام في هذين الكيسين واذهبوا بهما الى الحافلة الصغيرة." يلتفت بعد ذلك الى ولدي، ويمسك بذراعه. "أما أنت فتأتي معنا!" أصيح مذعورة "أستاذ، الله يطول عمرك، هو لم يفعل شيئا، وأنا حاولت أن أشرح لك أنه..!" ولكن الرجل لا يرخي قبضته عن ذراع ابني. أقول له متضرعة "أستاذ، أرجوك. هو ليس في كامل عقله، من اليوم الذي..!" يلتفت بوجهه الغاضب، ويقول لي "اطمئني. سوف نجعله نحن يسترجع كامل عقله!" وترعبها النبرة المتوعدة في صوته. يخرجون الى فراغ الدرب، وهي تلاحق المسؤول بتوسلاتها، وهو ماض في طريقه، يجر ابنها معه، ومرؤوسوه يتبعونه. الفتيان المسلحون ما يزالون في أماكنهم على الشاطىء، والسيارات المسلحة تقف في بداية الدرب ونهايته. "عندما كنت أنا وولدي سعيد داخل البيت، الذي عشت فيه وألفته، كان رعبي أقل. أما الآن وأنا في العراء، تحت كل هذه العيون المرتابة، من أفراد الحرس، والمشفقة من الجيران المنكمشين على أنفسهم، عند الأبواب، فرعبي لا حدود له! أقول له "اسأل عنه الجيران. الكل يعرف أنه..!" لكن الرجل يترك ابني لأتباعه يأخذونه بعيدا عني، ويستدير صوبي. "لا تتعبي نفسك وتتعبيني!" ثم يأمر واحدا من الحرس الواقفين على الشاطىء أن يعيدني الى البيت. ويتركني مع الفتى المسلح ويمضي! أسمع ولدي يصيح، بين حراسه، ملتفتا بوجهه نحوي "ساهرة لا تخافي! انهم يأخذونني الى التدريب!" أنظر اليه في يأس. براءة المجانين هذه سوف تدمر حياته وحياتي! يذهبون به صوب الحافلة الصغيرة المسدلة

الستائر "ويتركونني وسط الدرب وحيدة، مع الجندي المكلف باعادتي الى البيت." تصرخ وراء الموكب المبتعد "خذوني معه!" وتحاول التخلص من حصار الفتى، الا أنه يظل عنيدا في مقاومتها، ناشرا ذراعيه أمام صدرها، رشاشته القصيرة في احدى يديه، يتمتم بكلمات مبهمة لا تنتبه اليها. وتشتبك معه في تدافع أشبه بالعراك، وهو يصدها بالضغط بجسده عليها. يضغط ويضغط، وهي في نزوعها المتلهف للوصول الى ابنها لا تنتبه للتحول الذي يطرأ على جسد الفتى المستثار الملتحم معها، حتى يفيق جسدها نفسه، ويتنبه للخطر الداهم. عندئذ فقط تسمع لهاثه المتسارع، وكلماته الفاحشة، وترى البريق الغريب في عينيه، فترتد فزعة. لكنه لا يتركها، فهيكله القاتم يظل يلاحقها وهي تتراجع، متحاشية النظرالى وجهه المتشنج. تجلس على عتبة باب بيتها، فيقف أمامها حاملا سلاحه. تحاول أن تتجاهله. تحدق في اثر ابنها. تراهم يدخلونه في جوف الحافلة السوداء المسدلة الستائر,ولا تعود تراه. حتى اذا خطر لسعيد أن يزيح احدى الستائرعن النافذة لينظر اليها، فأن بؤر أشعة الشمس المنعكسة عن زجاج نوافذ السيارة سوف تحول دون رؤية وجهه. وخلال الزمن الذي تحاول فيه أن تخترق جدران السيارة المقفلة بنظراتها الملهوفة تحس بوخز النظرات الشبقة للولد المهتاج على وجهها، وعلى جسدها. وتسمع صوت احتكاك قدميه الملولتين على الأرض، وهو يلوب أمامها. وبدون أن تنظر اليه تشعر به يتقدم صوبها. يقف على بعد خطوة منها، وترى الارتفاع الفاضح بين فخذيه، وتسمع حشرجة صوته اللاهث وهو يتمتم "ادخلي الى البيت! ادخلي بسرعة!" صوته واطيء ومتعجل. "لا تجلسي هنا! النقيب أمرني أعيدك الى البيت!

أتريدينه يعاقبني!" تنظر اليه غاضبة وتصيح بصوت تتعمد أن تجعله مسموعا من الحرس على الشاطيء، ومن الجيران. "لن أدخل! اذهب عني!" الجنود الواقفون يحرسون الشاطىء يحركون رؤوسهم، وينظرون اليهما. لكنهم لا يبرحون أماكنهم، والجيران يشلهم الخوف. غير أن الفتى يتراجع عنها قليلا، لكنه لا يغادر. وتظل هي جالسة على عتبة الباب تنتظر نهاية ساعات الحصار. قال لها زوجها مرة ان احتجتني خلال النهار فاسألي عني في حجرة المحامين، في محكمة الكرخ، والحي لا يزال مطوقا. رأت وجوه الجيران تختفي داخل البيوت. كانوا يهربون حاملين خجلهم وعجزهم عن مساعدتها، وابنها محتجز في جوف الحافلة الصغيرة السوداء، والوقت يمضي والشمس ترتفع، وصفحة دجلة تزداد بريقا، والظلال تتقاصر. وعلى الشاطىء البعيد تلوح البيوت صغيرة وبيضاء. وفوق سطح الماء يتمدد ظل الجسر الحديدي تحت الجسر تماما هذه المرة. وينتصف النهار. وتنتهي أخيرا عملية البحث عن السلاح داخل بيوت الحي. وتعلو النداءات والأوامر. ويتراكض الفتية المسلحون الذين كانوا يحرسون الشاطىء صوب ناقلات الأفراد، بعضهم يخطف من أمامها بخطوات مسرعة. وقبل أن ينصرف عنها الشاب الصغير الذي كان يحتجزها يقترب منها ويهس من بين أسنانه فوق رأسها. "لماذا لم تدخلي الى البيت؟ قحبة!" ثم يبصق عليها في حقد، ويركض مبتعدا يتبع أصحابه. تهب واقفة، يداها تمسحان رذاذ البصاق عن وجهها، عيناها المصعوقتان تتابعان هيكله المبتعد. ولكن ما الذي جعله يقوم بفعلته الشريرة!؟ وأي كلام هذا الذي قاله!؟ تقف مذهولة تشهد في قنوط القافلة تتحرك "بعد أن سلبت مني ابني، فهل نجا من الأسر عند

الأعداء ليقع أسيرا هنا!؟ أدخل الى البيت. أغلق على نفسي الباب. الأشياء مبعثرة في كل مكان، والتراب يغطي كل المساحة في غرفة نومي. وفي المكان الذي كان ينتصب فيه سريري ينفتح الآن قبر واسع عميق يلوح في قعره ماء كدر. أغير ثيابي بسرعة، أحمل أوراق سعيد، وأغادر البيت للبحث عن زوجي.

*

أخذ الطبيب أنفاسا من سيجارته، ونفخ في الهواء، ثم نظر اليها. أقترح عليها أن تتمدد على الديوان وتكمل حكايتها. قالت له انها ليست مريضة. قال انه يعرف، وأن أخاها هو المريض. نهضت عن الكرسي وتمددت على الديوان. أحست بالحرج وبنعومة الجلد وبرودته تحت راحتيها. كان الليل يتقدم، والشموع تحرق نفسها من حولها. سألها الطبيب. وماذا فعلت بعد ذلك؟ قالت له انها ذهبت الى محكمة الكرخ تبحث عن زوجها. عثرت عليه في حجرة المحامين، يجلس بين عدد من الرجال يتحدثون ويدخنون، غير أنه كان في شاغل عنهم حقيبته مفتوحة على ركبتيه، يقلب في أوراقه. بدا مسرورا حين رآها. أغلق حقيبته، وضعها على مقعد بجواره، ونهض يستقبلها. غير أن الابتسامة على وجهه تلاشت سريعا عندما لحظ علائم القنوط على وجهها. سألها قلقا "خيرا! ماذا حدث!؟" وباغته النبأ. سألها ان كانت تعرف الى أي مكان أخذوه. لكنها ما كانت تعرف. طلب منها أن تجلس، وتوجه الى واحد من زملائه المحامين. تكلم معه بصوت لم تسمعه. الا أنها رأت سحنة الرجل تنقلب. رأتهما يذهبان الى شخص ثالث يكلمانه، ما لبثت أن تغيرت ملامحه هو أيضا. هل الأمر خطير الى هذا الحد! "وازددت رعبا! لم

أستطع البقاء جالسة. وقفت أرقبهم يتهامسون. وددت لو ذهبت أقف بجوارهم أسمع ما يقولون,ولكن مثل هذا العمل كان سيحرج زوجي. وجاءني أخيرا." قال لها وهو يحاول أن يبتسم "ان الأمر بسيط، مجرد سوء فهم، فالرجل لم يصدق ان أخاك ليس في كامل وعيه." وطلب منها أن تعود الى البيت. قال لها انه سيحاول اخراج أخيها. الا أن نظرته بدت شاردة. رجته أن يسمح لها بالذهاب معه. لكنه رفض. قال لها انه هو نفسه لا يعرف الى أين عليه الذهاب. وعندما عاد عصرا قال ان أحدهم وعده بأن يسأل عن المكان الذي أخذوا اليه سعيد، من أجل أن يقوم بمساعيه لانقاذه. سألته وهل يعني ذلك أن ولدها سوف ينام خارج البيت تلك الليلة. "فرجاني أن أهدأ وأصبر. سوف يكتشفون الخطأ ويطلقون سراحه!" أرادت أن تعرف متى يتم ذلك. قال لها قريبا ان شاء الله. "وهل أطلقوا سراحه سريعا أم.. يجب أن أعرف!" قالت للطبيب "لن أضيع الكثير من وقتك، دكتور، بالحديث عن عذاب الأيام التي مرت علي، وأنا أنتظر. زوجي ما عاد يمنعني من الذهاب معه، فبقائي في البيت وحدي، مع الهواجس.. تعرف حضرتك! وأدركت منذ الأيام الأولى للبحث والاستفسار أننا كنا كلنا عاجزين عن فعل شيء,وأن المصائر تقررها قوى غير بشرية. وبرغم كل المحاولات التي بذلها زوجي وأصحابه لم نستطع أن نهتدي الى المكان الذي أخذوا اليه ولدي، كأنه دخان تبدد في الهواء! وفي صبيحة أحد الأيام، بعد شهر وثلاثة أيام، نعم..أتذكر فذلك اليوم محفور في رأسي، سمعت طرقا على الباب. عندما فتحته لمحت سيارة صغيرة سوداء تبتعد. لم أشاهد أحدا على العتبة. ما معنى هذا!؟ وقفت لحظات أحدق الى ظهر السيارة تمضي على

ضفة النهر باتجاه الجسر الحديدي. لما استدرت بعد ذلك لأدخل البيت رأيت رجلا يجلس على الأرض لصق الجدار، على بعد مترين أو ثلاثة من الباب. جلس الرجل منطويا على نفسه، رأسه على ركبتيه، ذراعاه تحيطان برأسه. كان يجلس في سكون، دشداشته رثة ومزقة، تكشف عن أجزاء من جسده. لم أندهش فالمتسولون يملؤون الدروب هذه الأيام، يدقون على الأبواب يطلبون طحينا، ثيابا عتيقة، نفطا أبيض للوقود، أو للفوانيس في بيوتهم المظلمة. غير أن الشحاذ الذي رأيته كان يجلس ساكنا كأنه يريد أن يستريح. مشيت اليه. سألته ان كان هو الذي طرق الباب، فرفع رأسه وجابهني بنظرة ذاهلة. يا اله السموات! ألقيت بنفسي عليه واحتضنته ورحت أبكي من اللوعة والفرح. كان الشعر يغطي وجهه الذي أصابه الذبول، وغاضت منه الدماء. رأيته يبتسم ابتسامة لا أعرف كيف أصفها لك!" قال لها الطبيب محمود سالم انه يعرف. "أنهضته من على الأرض. أمسكت بذراعيه ثم أدخلته الى البيت، وجعلته يستريح على سريره." تغمض عينيها مكتئبة، كأنها تعيش تلك اللحظات. تشعر بجلد الديوان ساخنا تحت راحتيها النديتين. ترفع يديها تشبكهما فوق صدرها، وتبقى صامتة. تسمع الطبيب يقول "نعم,أنا معك". تفتح عينيها وتنظر الى السقف العاري. تأملت ولدها سعيد غير مصدقة. أين كان مطمورا كل تلك المدة!؟ وكيف تحولت ثيابه التي كان يرتديها ساعة أخذوه الى هذه الخرقة البالية التي لا تستر جسده. راح يهذي بكلمات لا رابط بينها. قال لها انهم وعدوه أن ينصبوه ملكا على متنزه (الزوراء) لكنه طلب منهم علبة ثقاب عوضا عن هذا المنصب. عندئذ ضحكوا كثيرا وأنعموا عليه بوسام من الدرجة الأولى لأنه مات شهيدا من أجل

وطنه! "تحبين تشوفين الوسام؟" ومد يده في جيب دشداشته المهلهلة وأخرج شيئا في يده المضمومة، عيناه تلمعان زهوا. ثم فتح يده "فرأيت في راحة يده الخالية من الدم عقب سيجارة سحقته الأقدام!" تتنهد. أرادت أن تنتزع العقب المسحوق من يده وترميه بعيدا، غير أنه أطبق عليه قبضته في حرص، وأعاده الى جيبه. عندما عاد زوجي من المحكمة "أخبرته بعودة ولدي. فرح كثيرا، وأراد أن يراه. جاء معي الى غرفته. لكن سعيد انكمش على نفسه، ورفع ذراعيه يحمي بهما وجهه ورأسه. تراجع ماجد، ووقف بعيدا ينظر اليه في وجوم. بعد ذلك قال لي "أزيلي عن وجهه هذا الشعر الطويل، وخلصيه من أوساخ الغياب!" أدخلت سعيد الى الحمام. نزعت عنه تلك الدشداشة القذرة فتكشف أمامها ظهره "عندئذ شفت..! فجثوت على أرض الحمام أبكي. وكان هو يمسح على شعري، ويسألني لماذا تبكين!؟ ألأنني رفضت أن أكون ملكا !؟ وكانت كلماته تزيد من عذابي!" تسقط يديها عن صدرها وتجلس على الديوان. كان الطبيب، الذي لم يقاطعها، ينظر الى وجهها صامتا، يتقلص الجلد حول شفتيه في ما يشبه ابتسامة ساخرة. رفع جهاز التسجيل الصغير. نظر الى الشريط ثم أعاده الى مكانه. كان بعض من ضوء الشموع ينعكس على زجاج النافذة وراء ظهره. وكان الليل في الخارج يبدو قاتما. سألها "وبعد هذه التجربة بدأت عند أخيك عادة اللعب بالنار!" قالت له "بعدها. قبل ذلك كانت حالته أفضل كثيرا. في الحقيقة كان يتعافى ويستعيد وعيه وذكرياته، مع الأيام. ورحت اخفي عنه علب الثقاب ومصادر النيران، وأتركه يعيش مع خيالاته، بأمل أن ينسى ما مر به هناك عند الأعداء، وهنا عندنا. أعرف أن زواجي من الأستاذ ماجد

المحامي لم يكن في وقت ملائم وأنا أعيش هذه المحنة، لكنه قال لي ان زياراته المتكررة لدار امرأة عزباء تعيش مع أخ مريض في عقله لا يعي ما يجري حوله يثير أقاويل الناس، كما أن الواحد منا بحاجة الى الآخر، فهو يعيش وحيدا بعد أن فقد عائلته بكاملها تحت القصف، فوافقت ولكن بشروط." "وما هي هذه الشروط؟" نظرت الى الطبيب منزعجة. لماذا يريد أن يعرف كل أسرار حياتها، والمريض هو ولدها! مع ذلك ردت على سؤاله. قالت انها اشترطت عليه أن يأتي ويقيم معهما، مع تحفظات أخرى قبل بها. "وتزوجنا. وفي أول ليلة ضمتني فيها غرفة مغلقة الباب مع ماجد، أشعل سعيد النار في غرفته!" "ولكن كيف، وأنت تقولين انك تخفين عنه مصادر النيران!؟" قالت له انها لا تدري كيف. "كان شيئا محيرا. كنا في السرير، عندما سألني زوجي ان كنت نسيت شيئا على النار. ثم نزل فتبعته. شاهدنا لهيبا يضيء غرفة سعيد. هرعنا اليه. وجدناه يقف وسط الغرفة، يرقب مبتهجا النيران المشتعلة في فراشه، وفي يده علبة ثقاب يشعل أعوادا منها ويرمي بها حوله في أرجاء الغرفة. انتزعت منه العلبة وأخرجته. وعمل زوجي على اخماد النيران. بعد هذا الحادث ازدادت مخاوفنا. قلنا اذا بقي على هذه الحال فسوف يحرق نفسه يوما ويحرقنا. لهذا السبب..!" نهضت عن الديوان، ونظرت الى الطبيب. سألته ان كان هناك أمل في شفائه. نظر الى سيجارته ثم نظر اليها. قال انه ليس نبيا، وأن عليه في البداية أن يعرف مدى الخراب الذي أصاب مرتكزاته النفسية. لم تفهم قصده. قال لها ليس مهما أن تفهمي. دعيه يدخل!

١١

تفضل أخ سعيد! لا تقف بالباب.

العينان الجاحظتان قليلا تومضان وراء قرصي الزجاج، والكف السمراء ترتفع فوق سطح المكتب تشير اليه أن يتقدم لكنه لا يتحرك من مكانه عند الباب يحس برودة المقبض المعدني في لحم راحته وأصابعه عيناه تجوبان أرجاء الغرفة والكل في الداخل ينظر اليه وينتظر الديوان الطويل بجوار الجدار والمقعد الجلدي الفارغ والمكتب العريض ولهب الشموع والتلفون الأسود والنافذة العريضة المغبشة والليل الكامن في الخارج والوجه المنتفخ أدخل تناديه الشموع ويدفعه صوت أمه وراء ظهره يدخل ويسمع صوت انغلاق الباب وراء ظهره ها هو الآن يقف وحيدا بلا معين يدفع عنه الأذى أسيرا بين الباب الموصد والوجه المترصد والشموع تذرف دموعها في قيعان صحون بيض "اجلس!" يأمره المحقق يمد احدى ساقيه يتحسس البساط بطرف حذائه بحذر وحين يطمئن الى أن الموضع الذي لامسه برأس قدمه خال من الألغام يترك كامل حذائه يستقر على الأرض ويمد ساقه الثانية ويفعل الشيء نفسه عندما يطمئن الى أن الأرض أمينة يجلس على المقعد الجلدي ويخفي كفيه بين فخذيه عيناه تراقبان تحركات العدو يقول له المحقق والآن أريد منك أن تخبرني بكل

شيء يبتسم كلهم يريدون منه أن يخبرهم بكل شيء "تكلم!" يأمره رجل الشموع قل لي كيف حالك!؟ أنت تريد أن تعرف كيف حالي ولكن أين ومتى حالي هنا في الزنزانة أم حالي في الشارع عندما جئنا أنا وأمي أم في البيت مساء البارحة أم عندما أخذوني للتدريب تريد أن تعرف كيف حالي في أول النهار في آخر النهار أم عندما أسافر يتفوه بكلماته المتلاحقة بسرعة وهل تسافر المحقق يريد منه جوابا واحدا على ألف حالة واضعا مرفقيه فوق سطح المكتب خده ينام في راحة يده سيجارته تنتصب بين أصابعه ثابتة في الهواء عيناه تنتظران قال له انه يسافر دائما تسافر دائما نعم أسافر ورأسي على الوسادة أسافر وأنا على ظهر التخت في صالة البيت وأنا أمشي على النهر وأسافر كثيرا وأنا في الحمام قل لي وماذا ترى خلال هذا الرحيل الدائم لكنه لا يستطيع أن يخبره بكل شيء حذروه من الثرثرة أمام الأغراب لكي لا يكتشفوا أسرارنا ينظر الى الباب الموصد يشعر أنه محاصر يخرج يديه من بين فخذيه وينهض ينتفض المحقق الى أين يقول له أريد أشوف أمي بعدين تشوفها بعدين أجلس الآن يعود الى الجلوس لا يستطيع أن يخالف أمر المحقق يخاف من العقاب حدثني عما تراه وأنت تسافر يمد يدا مترددة يتحسس بها السطح البارد والقاسي لوجه المكتب يمرر أطراف أنامله على السطح الصقيل ببطء عينا المحقق تتابعان حركة أصابعه التائهة يسحب يده بغتة ويسارع باخفائها بين فخذيه يقول له رجل الشموع لماذا لا تذهب وتنام على الديوان لتكون مستريحا وأنت تتكلم يقول له ان النوم ممنوع في القفص في ساعات النهار مثلما تحب والآن تكلم ينظر الى الباب المغلق مرة ثانية افتح الباب ولماذا تريدني أفتح الباب حتى لا

يموت الهواء ولكن الآخرين في الخارج يسمعون كلامنا المحقق معه حق يقول معترفا مرة وأنا أسافر خلال النهار شاهدتهم يتحلقون حول جثتي من هم هؤلاء!؟ الأعداء طبعا رأيتهم يتجمعون حول جثتي يقلبونها على ظهرها هي كانت منكفئة على وجهها في الصحراء بين أشواك العاقول ساقاها منفرجتان والشمس تنظر اليها والذباب الجوعان يطن ويطن من حولها وكانت خوذتي المعدنية التي سقطت عن رأسي ترقد وحدها على التراب وتسخن في الشمس بين الأشواك اليابسة بالقرب من وجه جثتي وفي فمي طعم تراب حار ومالح وفي أنفي رائحة أشواك محروقة تتصاعد موجات في الهواء الملتهب والمدافع تثرثر من بعيد دو دو دو ترد عليها مدافع في مكان أبعد دم دم دم! والصحراء تختض وتحت بطني تراب منقوع وفي بطني نيران تركض لهبة وراء لهبة الا أنني ساعتها ما كنت موجودا داخل جثتي كنت في بغداد أسبح في نهر دجلة صبيا بين الصبيان أسبح وأفكر بجثة سعيد الذي صار شابا بسرعة وهي متروكة هناك في الصحراء تختض مع الجثث الأخرى المستسلمة للنوم أراقبها وأنا أطفو بجسدي الصغير العاري فوق ماء دجلة البارد تحت الجسر الحديدي والظلال تذوب في الماء وأنا أترك جسدي يتنقل بين الماء الظليل والماء المشمس وجثتي وحدها هناك تنزف في صمت بين أزيز الحشرات وطنين الذباب اللجوج والقبرات تطير من حولي تدنو وتبتعد هل رأيت أنت قبرة نعم رأيت استمر في كلامك والقبرات تريد أن تلعب معي وأنا لا أستطيع أن أحرك يدي وفي بطني نيران تشتعل عندئذ سمعت لغطهم ووقع أحذيتهم كانوا يتكلمون بلغة الأعداء واقتحموا غرفة أمي ساهرة يحملون أدوات الحفر ثم تطايرت الشظايا الحارقة ودوت الانفجارات

وسقطت على الأرض في الصحراء وكانت أمي تقف في باب الحجرة تنظر اليهم يحفرون تحت سريرها وترمقني بغضب وأنا لا أنظر اليها وهم يحفرون وأحذية كبيرة معفرة بتراب صحراوي أبيض وناعم تتحرك حول جثتي وأحس بطرف حذاء ينحشر بين كتفي وتراب الأرض فيهتز جسد سعيد ثم ينقلب على ظهره يواجه عين الشمس تخزره حانقة والسماء تهبط فوقه زرقاء وشاسعة ويتطاير الذباب لحظة ثم يعود ليحط على الجرح المفتوح هذه المرة وهم لا يزالون يحفرون تحت سرير أمي ثم أسمع لغطهم الغريب يتكلمون بلغتهم التي لا أعرفها وأتحاشى النظر الى عيونهم المحملقة وأحدق الى السماء وأقول الآن يطلقون رصاصة الرحمة على الحصان الآن الآن ولا أدري ان كنت سأسمع صوت الطلقة أولا أم أحس باختراق النار وجثتي تريد أن تهرب وأتعلق بالسماء حيث أرى طيورا كبيرة سوداء تحوم وتنتظر أما روحي فلا تريد أن تحلق تظل مثل قبرة تتقافز على الأرض لا تريد أن تفارقني ويسألني رئيسهم حانقا أين هو السلاح الذي قلت لنا عنه وأشعر بسخونة حديد السيارة تحرق ظهري ورائحة أجساد دامية أخرى شحنوها معي فوق ظهر اللوري ويقول الرجل لأتباعه واصلوا الحفر والصحراء تركض من حولنا وتصيح آاااخ يابه وجثتي التي ما كنت أنا بداخلها تطفو فوق سطح الأنين والصحراء تتحرك والأشواك تمضي وخوذتي المتروكة على التراب تمضي لتصبح عشا للقبرات ربما في ما بعد وأمي ساهرة بثياب بيض تنحني فوقي وتهزني ابني سعيد لا تغمض عينيك لا تغمض عينيك أنت لم تمت فليلك بعيد صوتها يمسك بي وأنا أترنح تلفني موجة بعد موجة من ظلام الليل والصحراء تركض وتئن وأنا مروحة تدور في سقف الزنزانة وظهري

صفحة عارية يكتبون عليها بأقلام من حديد ساخن والأجساد النازفة تختض وتئن من حولي والصحراء تركض بنا وتضع ساهرة اصبعها فوق الجرح المفتوح فيتوقف جسدي عن مواصلة سقوطه في بئر الليل ورئيسهم يصرخ لماذا كذبت علينا وثقبوا جمجمتي ثم وضعوا عظامي في كيس الوسادة وأمي تصيح وراءهم خذوني معه لكنهم يضعون عصابة سوداء على عيني فيحل ليل طويل المحقق يخرج سيجارته من فمه وينفخ في الهواء فيبعد هو وجهه عن الدخان الذي ملأ الغرفة يسأله وماذا حدث بعد ذلك يقول له انه ما عاد يتذكر حاول نعم تذكرت في احدى سفراتي دربونا على اصابة الهدف لكي نستعد دربوكم كيف جاؤوا برجال ونساء وأطفال مثل ولدي أنا كان عندي اثنان قبل أن يأتوا بجثتي الى ساهرة ربطوهم كلهم الى أعمدة وأمرونا أن نسدد فوهات بنادقنا الى المواضع المؤشرة بالأحمر ورفعنا بنادقنا هكذا يغمض احدى عينيه ويوجه فوهة سبابته نحو قلب المحقق طاق طاق يواصل اطلاق نيرانه على الهدف الذي يتهدل مشدودا الى العمود ويختلج اختلاجات العذاب الأخيرة ولا نتوقف حتى تتمزق الأجساد ولا يتبقى منها شيء يصلح هدفا لنيران بنادقنا المدرب يبتسم في شرود فيبتسم هو أيضا نعم وبعد ذلك بقينا نتدرب كل يوم ثم قالوا لنا انهم لا يستطيعون أن يخصصوا انسانا حيا بكامله لكل واحد منا يتدرب عليه فمراكز التدريب ازداد عددها وعلى كل واحد منا أن يأتي معه بجريدة قديمة أو بصحن كبير يضع فيه حصته وبدأنا نصطف فجر كل يوم في طابور طويل كأننا نقف لشراء الطعام لفطور العائلة ونأخذ حصصنا لذلك النهار جزء من فخذ جانب من صدر نهد امرأة أية قطعة من الأشلاء المقصوصة في غرفة التقطيع وعندهم غرف تقطيع

أيضا طبعا أنت لا تصدقني لا أنا أصدق كل شيء نعم عندهم مثلما أقول لك والا سيادتك تتصور يعني نحن بأنفسنا نقوم بتقطيع الهدف بأيدينا وأسناننا وبعدين يمكن نتعارك على الحصص معك حق لم تخطر على بالي هذه المسألة وماذا تفعلون بهذه تقصد القطع الصغيرة سيادة المحقق يا ابني أنا لست محققا أنا طبيبك ونحن هنا نتكلم مثل أصدقاء مثلما تحب سيادتك طيب وبعدين كل واحد يثبت حصته في المكان المخصص له من جدار طويل في ساحة التدريب ونبدأ باطلاق النار طريقة ممتازة تخلينا ما نتعرف على أهلنا وأصحابنا ولكن واحدا من جماعتنا المتدربين وضعوا في صحنه كفا نسائية في أحد الأيام فرأى خاتم زواج أمه في أحد الأصابع ورحنا بعد ذلك نبحث عن مثل هذه الأشياء حتى نبيعها ونشتري بأثمانها طعاما الا أن كل ما عثرنا عليه كان قرطا واحدا وخاتمين فهم جنابك تعرف يجردون البضاعة من كل ما عليها قبل تقطيعها المحقق يغادر مكتبه يأتي صوبه قامته القصيرة تتأرجح كأنه دائخ أو سكران يرفع هو ذراعيه يحمي بهما رأسه ووجهه وينكمش على نفسه يترقب هبوط الضربات غير أن المحقق لا يضربه انما يضع كفه على كتفه ويقول له كافي يا ابني كافي هذا اليوم انصرف أرجوك اختك تنتظر صوت المحقق يبدو تعبان ينهض مشدوها ويتراجع صوب الباب الموصد تودعه نيران الشموع!

١٢

جاءت أخيرا. زوجي ماجد أقنعها فجاءت بالولدين مرة ثانية، قبل الغروب بنحو ساعة، متبرجة كعادتها، منذ بدأت تعيش مع ذلك الفاسق، تتباهى بمفاتنها ومصوغاتها، الصبغ الأحمر يلون شفتيها الرطبتين، أساور الذهب تتلامع وترن، في ساعديها البيضاوين، كلما حركت يديها، والأقراط الكبيرة تهتز بين ثنايا شعرها الأسود، ترتدي حذاء عالي الكعب أنيقا، وثوبا ضيقا قصيرا من الحرير الهفهاف. جاءت وحدها مع الولدين، ولم تجلب معها ابنها بالسفاح هذه المرة. لعل ماجد هو الذي اقترح عليها أن تفعل ذلك، لكي لا تستفز مشاعري. بدت وهي تجلس على طرف التخت، في صدر الصالة، تدخن بحركات لا مبالية، وتضع ساقا على ساق، تكشف للعيون بياض فخذيها، دخيلة على بيتنا. بدت كأنها عاهرة! تكلمت معي بلهجة متعالية جديدة عليها. قالت ان زوجها منصور ما وافق تجيء. "قال لي كيف تروحين الى ذلك البيت مرة ثانية، بعد أن طردتك تلك المرأة..!؟" لكنني تركتها تهذي، والتفت الى الصغيرين. قلت لهما تعالا هنا، وانظرا ماذا اشترى لكما أبوكما!

ثم استدرت اليه. ابني سعيد اعطهما الهدايا التي اشتريتها لهما. (في الحقيقة هو لم يشتر شيئا، وما كان الولدان يخطران على باله!) كان

يجلس على التخت الآخر، لصق الجدار الآخر، يقابلها. وكان الجدار الأوسط مشغولا بالنافذة المطلة على النهر، وبجهاز التلفزيون المغطى، وهو يجلس صامتا. كنت ألبسته ثيابا نظيفة، وجعلته يحلق ذقنه، حتى يبدو بمظهر لائق أمام ولديه. لكنه لم ينظر صوبهما. كان ينظر اليها، في هيئتها المثيرة، كأنه يحاول أن يتعرف، في هذه المرأة الجالسة أمامه- تتكلم وتحرك عينيها وذراعيها- على وجه انسانة ذابت ملامحها بين فوضى ذكرياته الغائمة والمشوشة. أنا قلت لمنصور اذا كانت هي..!

استمرت الفاحشة تلغو، في حين بقي هو يجلس صامتا يطيل التحديق اليها، وأنا أريده أن يلتفت الى ولديه اللذين وقفا حائرين ينتظران. كنت أجلس بجواره أمسك بيدي الولدين. لمست ذراعه. "أعطهما الهدايا!" أفاق من شروده، وناول كل واحد منهما لعبته، مثلما أوصيته. أخذ الولد الكبير هديته، وعاد يقف بجانب أمه. أما الصغير فبقي يقف بجوار أبيه يحاول فتح العلبة، ليرى ما فيها. قال انه يريد طيارة! "هل هذه طيارة!؟" قلت له لا عيني. أبوك اشترى لك سيارة حلوة! لم يلتفت سعيد لكلمات ابنه ولم ينظر اليه. نهض مثل انسان مسحور. أزاح الصغير عن طريقه، ومشى اليها. كانت هي منشغلة تفتح علبة الهدية لولدها الكبير، والسيجارة المشتعلة عالقة في طرف فمها (هي ما كانت تدخن) والأساور تتحرك صاعدة نازلة بين المعصم ومنتصف الساعد، مع حركة ذراعيها. أحست به يدنو منها فجفلت. رفعت رأسها تنظر اليه مرعوبة، وسقطت العلبة من بين يديها بخيوطها المحلولة. قلت لها لا تخافي. فهو لا يفكر بايذاء أحد! انتزعت سيجارتها من بين شفتيها. وضعتها في منفضة الرماد على الطاولة

الصغيرة أمامها، وانكمشت على نفسها على التخت عيناها ترقبانه في فزع وهو يقف فوق رأسها يحدق الى وجهها ولا يقول شيئا، وابنه الكبير يتطلع اليه في خوف، وأنا أنظر اليه حائرة لا أدري ما الذي يريد أن يفعله. ثم رأيته يمد يده الى وجهها في حركة بطيئة مترددة. وسمعتها تصرخ مفزوعة. "ساهرة أبعديه عني!" وراح الولد الكبير يحاول أن يدفع أباه عنها ويصيح "لا تضربها!" فهرعت الى سعيد قبل أن يقوم بواحد من أعماله المجنونة. الا أنه بسط ذراعه أمام صدري وقال "أنا ما أريد أضربها. أنا فقط أريد أن أتعرف على هذه المرأة!" ومد يده ومرر أنامله برفق على استدارة خديها، فتراجعت مبتعدة والتصق رأسها بالجدار الذي كان يسد عليها الطريق من الخلف. بقيت لحظات محصورة هكذا في زاوية التخت عيناها المذعورتان تحدقان الى يده تلاحق وجهها المضطرب، وابنه يضربه في بطنه بيديه الصغيرتين محاولا ابعاده، فأمسكت بابني وأرجعته الى مكانه وأنا أوبخها حانقة. "لماذا كل هذه الضجة!؟

الأنه أراد أن يلمس وجهك!؟" تمتمت وهي تعتدل في جلستها وتعدل أطراف ثوبها. ظننته يريد أن يصفعني! وحاولت أن تضحك. زايلها الخوف وشعرت بالانفراج فحاولت أن تضحك. وعاد هو يجلس في مكانه. لكنه لم يكف عن التحديق الى وجهها، وأنا أقف بينهما، والولد الصغير ينظر الى أبيه مندهشا، ولكن بدون خوف. أما الكبير فكان غاضبا ومنحازا الى أمه. حمل الهدية وجاء بها الى أبيه الجالس على التخت في سكون، وقال له في وقاحة لم أعهدها فيه. أنت لست أبي! وهديتك هذه لا أريدها. وضع العلبة في حضن أبيه، فتناولتها وأمسكته من ذراعه بقوة وجررته. تعال ! وأنت أيضا. تعالا العبا هنا على

البساط، ولا عليكما بما يجري! وتوجهت اليه. لماذا لا تجلس معهما، تعلمهما كيف يشغلان هاتين الدميتين. كنت أريده أن يقضي معهما بعض الوقت ليألفهما ويألفاه. ما كنت أريده يشغل نفسه بها. وكانت هي تجلس صامتة تحاول أن تضع على وجهها، مرة أخرى، قناعا من الهدوء المتعالي، غير أنها بدت مزعزعة، غير واثقة من نفسها، وهي تنظر الى الصغيرين يجلسان على البساط يحاولان معرفة أسرار لعبتيهما. رجوته مرة أخرى. "قم واجلس مع ولديك، فهما جاءا من أجلك." غير أنه لم يلتفت لما قلت، ولم يكف عن النظر اليها. ثم بدأ يكلمها. قال "تذكرت! أنت فتنة!" فابتسمت ابتسامة واهنة، والخوف منه لم يفارق عينيها بعد. قالت "أنت قصدك تقول فاتن!" "لالا. أنا قصدي.." فتدخلت أحاول أن أذكره. "هذه زوجتك التي .. واسمها فاتن. كانت تعيش هنا في هذا البيت،قبل أن.. ألا تتذكرها؟" لمعت عيناه. "نعم، هي المرأة التي كانت تعيش معي في هذا البيت وعندما حل علينا الشتاء راحت تنام تحت رجل آخر حتى لا يبللها المطر!" رأيت نظراتها التائهة تجول في أرجاء الصالة هربا من نظراته المحدقة، ثم تستقر على المصباح المضاء، على الجدار المقابل. قالت "عندما جئت في المرة السابقة كان التيار الكهربائي لا يزال مقطوعا." كانت تحاول أن تصرف اهتمام سعيد عنها. قلت لها ابني لا يفكر بالكهرباء..اعتاد العتمة. عندئذ نظرت الى وجهه وكلمته بصوت يرتجف. قالت له "أنت معك حق، لا تعرف شيئا! رجعت من هناك فوجدتني امرأة لرجل آخر. ولكن من أين كنت أنا أعرف أنك لم..!" ونظرت الى وجهي مستنجدة، تريدني أقول شيئا يؤيد كلامها. غير أنني بقيت صامتة أستمع اليها تحاول أن تبرر

عـهـرها. عـادت تنظر اليـه. "كنا نخـرج مع الفـجـر كل يوم أنا وأخـتك ساهرة. اسـألهـا كـيف كنا نخـرج كل يوم كـل يوم نذهب الى ذلك المكان الفظيع، مـن أجل أن نـسـتـفـسـر اذا كـان..بعـد ذلك جـاؤوا بهـا الى البـيت..قـالوا هذه هي..فـتـوقـفنا عن البـحث وعـن الانتظار". أطرقت برأسهـا ولم تقل شيئا لبعض الوقت، وهو ينظر اليها ولا يتكلم. وما كنا ندري مـاذا كـان يدور في داخل رأسـه في تلك السـاعـة وهي مطرقـة، شعرها يتهدل على جانبي وجهها، وطرف ثوبها ينحسر عن ركبتيها، وعن جانب من فخذها. ثم رفـعت رأسها وتكلمت بصوت أعلى وبنبرة حانقة. "ماذا كنت تريدني أفعل!؟ قل لي ماذا كنت تريدني أفعل!؟ كنت أعـتقد أنني غدوت أرملة، وأرامل كثـيرات تزوجن مرة ثانيـة على سنة الله ورسوله. أنا لست الوحيدة التي..!" تأملها صامتا وهي تتكلم. بعد ذلك خـاطبـها بصـوت هادئ، صوت سـاهم. قـال لهـا "أنا في الحقـيقـة سمـعت بنبـأ عـرسك وأنا وأصـحـابي نحـمل بنادقنا ونمشي بين الخنادق صاحبتي القبرة جاءت وجلست على كتفي وهمست بالسر في اذني حتى لا يسمعها أحد ثم طارت وأنا كنت وقتها مشغولا فلم أتمكن من حضور عرسك." جمدت ملامحها. نظرت اليه واجمة. ولم يداخلني أي شعور بالاشفاق عليها. غير أنني لم أرتح لاسترساله في ذلك الهذيان واهماله لولديه، اللذين جلسا على البسـاط يتعـاركـان. قـاطعتـه وهو يتكلم. "انهض يا ولدي وكلم ولديك. الوقت يمر!" لكنه ظل متجها باهتمامه اليـها تابع يقول لها "في احدى المرات تهت عن الطريق ودخلت حقلا واسعا ورحت أمشي رأيت جنديا يمر من بعيد توقف وراح يلوح لي بيده ويصرخ ولم أسمع ما يقول فمشيت اليه لكنه مد ذراعيه أمامه يصد بهما

الهواء ثم صنع من كفيه بوقا وصاح البوق ألغام! ألغام! ألغام! فعرفت أنني دخلت حقلا زرعته جماعتنا حتى يخضر ونجمع بعد ذلك المحصول ورأيت صاحبي يجلس على الأرض فجلست على الأرض مثله ثم رأيته يبتعد في الصحراء وأكلته الشمس بعد ذلك!" انقطع لغط الولدين، وحمل الصغير سيارته الصغيرة وجاء يقف بجوار أبيه، وترك الكبير لعبته على البساط، وجاء هو أيضا، الا أنه وقف على بعد خطوات يستمع الى الحكاية. وبقيت هي تجلس وحدها تضع ساقا على ساق، مرفق أحدى يديها على ركبتها، ساعدها الأبيض منتصب وخدها ينهصر في راحة يدها، والأساور الذهبية تتجمع بعضها فوق بعض في منتصف الساعد تقريبا، وتلمع في ضوء المصباح، والأقراط تلمع، وحذاؤها الأسود وسيقانها البيض وعيونها تلمع كلها في الضوء وهي تستمع اليه واجمة. "وبعدين!؟" لم ينظر سعيد الى ابنه الصغير. قال لها "بعدين الجندي أكلته الشمس وأنا أجلس على الأرض أفتش التراب والأرض منبسطة ليس فيها غير شجيرات شوكية وقبرات صغيرات تطير وتحط ولا تبتعد وجاءت قبرة وحطت على الأرض قريبا مني وأنا أرقبها" قاطعه ابنه الصغير "وما هي القبرة!؟" لكنه لم يرد عليه. قال مسترسلا "جاءت هذه القبرة وحطت على الأرض وراحت تدرج مقتربة حتى أصبحت في متناول يدي وكان بوسعي أن ألعب بريشها الناعم وأمسح على رأسها لكنني كنت أخاف أتحرك الجندي أشار لي ألا أتحرك من مكاني ونظرت القبرة الى وجهي وضحكت بعد ذلك طارت ونقلت الخبر الى صاحباتها فجئن الواحدة بعد الأخرى وتحلقن حولي يتكلمن بلغة القبرات ويكركرن بحرية فوق البذور التي زرعناها في التربة وأنا أحسدهن لأن

أجسامهن خفيفة ويملكن أجنحة يطرن بها وأنا لا أمتلك أجنحة!" "وماذا حصل بعد ذلك!؟" الولد الصغير الذي بدا مشدودا للحكاية وقف بين ساقي أبيه، فأحاطه سعيد بذراعيه. ولا أدري ان كان بدأ يحس بعاطفة الأبوة نحو ولديه، أم أن حركته تلك كانت حركة يدين تائهتين تريدان أن تسكنا الى شيء! استمر يكلمها وهي تنظر اليه واجمة. قال "وجاء الليل ثم نزل المطر وأنا أجلس في الظلام أحس بالماء البارد يشعل النار في لحمي وأسمع المطر يضحك مني ويقول أنت السبب ومن بعيد كانت تأتيني أصوات انفجارات متواصلة مثل لغط ماكنة كبيرة لا تريد أن تتوقف والأفق البعيد تلال من النيران تشتعل وتخبو تشتعل وتخبو وفي السماء السوداء المبللة بالمطر تتراكض نجوم الواحدة تتبع الأخرى وبرق الله يشع في السماء الحالكة فوق رأسي ويعريني ويعري الصحراء المنقوعة بالماء وشجيرات العاقول تشتعل لحظة وتنطفىء وهزيم الرعد يختلط بلغط الماكنة الكبيرة ولا أستطيع أن أميز إن كانت الأرض تزمجر أم السماء غاضبة وأنا أجلس على الأرض المنقوعة أرتجف من البرد وفتنة في بغداد تحتفل بعرسها على سنة الله ورسوله!" لم تغير فاتن من جلستها كانت تستمع اليه وفي عينيها عذاب. لم أكترث لها. كنت مسرورة اذ أرى الولدين ينجذبان الى أبيهما ويتعرفان عليه عن قرب، خصوصا الصغير. ويتابع سعيد سرد حكايته الوهمية أو الحقيقية لا أدري فهو في هلوسته يخلط الواقع بالخيال خلطا عجيبا. سمعته يقول لها "وبقيت جامدا في مكاني أحسست أن الموت يتمدد قريبا مني يخفي رأسه في التراب يراني في جلستي وينتظر" "ولكن كيف يراك اذا كان يخفي رأسه في التراب!؟" تساءل الولد الكبير بنبرة متحدية، فانتفض

سعيد والتفت اليه "أنت كلمتني!" فكرر ابنه السؤال. قال له الموت يا ولد ما يشوف بعيونه هو عنده مراسلون." وبدا الولد الصغير نافد الصبر. "وبعدين!؟" فقال يواصل حكايته "في صباح اليوم التالي وأشعة الشمس تشعل الصحراء والماء الذي لم يشربه التراب بعد يلمع في برك صغيرة فوق سطح الأرض وشجيرات الشوك مغسولة والقبرات اللواتي أخذن حماما ليليا مختبئات بين الأشواك المبللة بدأن نهارا جديدا غير مكترثات بدوي الماكنة الكبيرة البعيدة التي لم تتوقف عن العمل جاء عدد من الرجال لا أعرفهم حملوني وأنا في هيئة جلوس لا أستطيع أن أحرك أطرافي وعصروني حتى سقط كل الماء عن جسدي ورأسي عصروه أيضا وأفرغوه من ماء الليل وجففوني وأنا أغني لهم (عناي جيت لدارك جيت أشتكي من نارك!) أغني وأضحك وأختض وأسعل وسمعتهم يقولون هذا المغفل مصاب بحمى شديدة لازم نأخذه رأسا الى خيمة الوحدة الطبية ومشوا بجسدي المعصور الى سيارتهم التي وقفت بعيدا عن الحقل وأنا أضحك وأغني وأختض وهم يضحكون أيضا يمشون ويهزون رؤوسهم ويضحكون." كنت أنظر اليها وهي تستمع اليه واجمة. لم أقاطعه، وهو يعذبها بثرثرته، مادام ذلك يريحه. لم يعجبني موقف الابن الكبير من أبيه. ظل ينأى بنفسه عنه، وينظر اليه بارتياب. ترى بماذا حدثته عنه الفاجرة! الصغير كان بعكس أخيه يتوجه بأسئلته الى والده بألفة، وان كان سعيد لا يمنحه الحنان الذي كنت أتمناه. ظل طوال الوقت يتوجه باهتمامه اليها، وعيناها تنظران اليه مدحورتين وتطرفان بعصبية مكبوتة، وهو يحدق اليها. سأله ابنه الكبير، كأنه يحقق معه. "ولماذا لم تتجنب حقل الألغام!؟ أما كنت تعرف أنه خطر!؟" لم ينظر الى

ابنه. ابتسم ابتسامة غريبة وقال عيناه ما تزالان على وجهها، كأنه يرد على سؤال وجهته هي إليه. "لا أحد يعرف خبايا الحقل المميت حتى يتجنبه، الا اذا كان هو الذي بذر البذار فالأرض تلوح بريئة.. شجيرات عاقول وقبرات صغيرات تلعبن وهواء لطيف وشمس وسماء صافية وكل شيء جميل عدا تلك الأصوات الثقيلة البعيدة وكنت أنا تائها لا أعرف طريقي أغراني مشهد الحقل فدخلت." رأيت الألم على وجهها، كأن يدا صفعتها. أسقطت ساعدها ورفعت رأسها ونظرت الى باب الدار. تمتمت في ضيق "منصور تأخر! قال نصف ساعة!" وباغتني خاطر، وأنا أستمع اليه يثرثر، بعث الأمل في نفسي. كانت كلماته العشوائية في الظاهر معبأة بتلميحات جارحة لا يمكن أن تصدر عن انسان لا يعي تماما ما يقول. كان حضورها يعيد اليه جانبا من وعيه. وكان يعمد الى تعذيبها انتقاما لخيانتها له وهو ممتحن هناك. لم يكن مستعدا لقبول تبريرها بأنها تزوجت بعد أن أيقنت من موته. ولكن لماذا لا يعترف بولديه ويهتم بهما!؟ أم أن ذلك جزء من لعبة يلعبها علينا! ان كان ما يدور في خاطري صحيحا فحضور فاتن الى بيتنا يمكن أن يكون نوعا من العلاج يجعله يستعيد كامل وعيه. سأتكلم مع زوجي يشجعها على التردد على بيتنا، وسوف أغير من سلوكي معها (ولكنني عندما كاشفت الطبيب محمود سالم بظنوني، فيما بعد، قال يبدو أن رؤيتها تستفزه. هذا واضح من كلامك. أما أن تكرار زيارتها سوف يساعد في شفائه فهذا هو الخطأ. على العكس فأن حضورها أمامه سوف يضاعف من سخطه عليها وعلى الذين تسببوا في عذابه وعلى العالم، وسوف يقوي عنده نزعة اشعال النيران في كل شيء تطاله يده. امنعيها من الحضور مرة أخرى!

ولكن ماذا عن ولديه!؟ قال الطبيب ليأتي بهما زوجك..وحدهما!). سمعتها تقول لابنها الكبير أن يذهب ويقف على الباب ويخبرها اذا جاء زوجها. لكن الولد لم يتحرك من مكانه. قال لها " زوجك هذا سوف يخبصنا بصوت النفير عندما يجيء!" كلمها بوقاحة. لم يكن متمردا على أبيه فقط. كان متمردا عليها هي أيضا. أحست بالحرج أمامي، فابتسمت في وجهها. خشيت أن لا تأتي مرة أخرى. أحضرت لها وللولدين عصيرا. ولم أحضر لابني سعيد شيئا، فهو لا يزال يصر على الاقلال من شرب السوائل، حتى لا يضطر الى الوقوف في الطابور كثيرا، من أجل الدخول الى الحمام، كما يقول. جلست على التخت بجوارها والولد الكبير يجلس بيننا، فمالت برأسها عليّ، وقالت بصوت خفيض "ساهرة خبريني ماذا يقول عنه الطبيب؟" فوجئت بأنها تعرف. سألتها "وما أدراك أنت!؟" قالت عندما زارها الأستاذ ماجد قال لها ان سعيد يخضع للعلاج، وانه يتحسن يوما بعد يوم. "لكنني لا أرى..!" سألتها بحدة "لا ترين ماذا!؟" بدت مرتبكة. قالت "يبدو أنه..لا أدري.. على كل حال أنت تعرفين أحسن مني." رمقتها ببرود. قلت لها انه بخير. "لا تتصوري أنه مختل لأنه يتكلم هكذا، أو لأنه نام على الأرض في المرة السابقة. هو فقط يحب أن يمزح أحيانا." قالت انها تتمنى له كل خير في الدنيا. ماذا تستطيع أن تفعل!؟ الظروف هي التي تتحكم بمصائرنا. تكلمت بصفاقة، كأنني أجهل تلك الظروف التي زعمت أنها تحكمت بمصيرها، وكأنها لم تستجب بسهولة لذلك الوغد الذي أغواها! رفعت كأسها وتشاغلت بشرب شيء من العصير، لكي لا تواجه نظراتي المندهشة. أصاخت السمع لدوي سيارة في الطريق، الا أن السيارة ما

لبثت أن ابتعدت. حاولت أن ألفت نظرها الى أن الولدين بدأا يميلان لأبيهما.. الصغير بشكل خاص. قلت لها "شوفيه كيف يحشر نفسه بين ساقي أبيه!" قالت ان ابنها محسن يتآلف مع الناس بسرعة. "ولكن هذا !" وأشارت الى الولد الكبير. قلت لها فائز بحاجة الى بعض الوقت ليتفهم ما يجري حوله. أما محسن فذهنه ما يزال خاليا من أية فكرة. بدت متفقة معي في الظاهر، على الأقل. قالت "نعم، ربما كان هذا هو السبب. وهو كثير الطلبات ومشاكله لا تنتهي!" فانتهزت الفرصة، واقترحت عليها أن تتركه عندنا في البيت. الا أنها انتفضت. "لا! مستحيل! هو يبقى معي!" وأضافت بعد قليل بصوت واطىء. "سوف أعرف كيف أربيه". سمعت الولد الصغير يقول لوالده "بابا اصنع لنا جثة، مثلما فعلت في المرة السابقة. فصحت من مكاني "لا! لا تفعل!" فوجىء الصغير باعتراضي وحدق الى وجهي مندهشا. فتكلمت بصوت أهدأ. "عزيزي محسن هذه ليست لعبة مسلية!" كنت أخاف أن يستجيب ولدي سعيد لرجاء ابنه، ويجعل من نفسه موضوعا للفرجة أمامها، كما فعل في زيارتها السابقة، وذلك النذل الذي يزني بها يتأمل المشهد متسليا. الا أن سعيد لم يتحرك من مكانه. ظل يجلس على التخت رزينا، تأمل ابنه في شرود. ثم قال "انا نسيت كيف يصنعون الجثث. ولكنك عندما تكبر وتغدو فتى يافعا سوف يعلمونك كيف تصنعها بنفسك!" سألت الصغير، من أجل أن أغير الموضوع، ان كانت اللعبة أعجبته. قال يخاطب أباه "من اشتراها؟ أنت أم ماما ساهرة!؟" قلت له ان أباه هو الذي اشترى الهدايا "أنا ذهبت معه فقط." فقال سعيد يهذي مرة أخرى "وهناك في السوق شفنا قطة كبيرة سوداء الشر في عينيها

تخفي رأسها تحت جناح حمامة جميلة بيضاء وتدفن مخالبها في كومة من حبات قمح وسمعناها ترحب بالعصافير التي حطت على الأرض قريبا من كومة القمح وتقول لهم تعالوا يا أحبابي الصغار وكلوا طعامكم، فأنا وأصحابي ننتظر دورنا واقتربت العصافير.." قال الولد الكبير يقاطع أباه "أنت تكذب فالقطط لا تتكلم!" صحت به غاضبة "تأدب يا ولد! كيف تخاطب أباك بهذه اللهجة!؟" والتفت اليها أعاتبها "أهكذا تعلمين أولادك!؟" تمتمت مرتبكة "لا والله العظيم! هو هكذا سليط اللسان لا يحترم أحدا!" في تلك اللحظة سمعنا صوت نفير سيارة تقترب ثم صوتها وهي تتوقف أمام الباب. هتفت فاتن بارتياح وهي تنهض "جاء منصور!" عاف الولد الكبير لعبته وتبع أمه. صحت وراءه نسيت لعبتك! لكنه لم يتوقف. وأخرج سعيد ابنه الصغير من بين ساقيه وقال له "اذهب أنت أيضا، فقد جاءت القطة!" مشيت معها الى الخارج، وهي تمسك بيد ابنها الصغير. قلت لها تعالي بهما مرة أخرى. تعالي كل اسبوع! ردت بجفاء، وهي تمضي متعجلة، ردفاها يهتزان وراء قماش ثوبها الناعم. "اذا وافق زوجي طبعا!" كان النذل ينظر الينا مستندا بمرفقيه على سطح السيارة الحمراء اللامعة، تحت أشعة الشمس الغاربة، وجهه الأبيض المعافى يبتسم مبتهجا. كان يحدق الى وجهي متشفيا، الكلب! سارعت باغلاق الباب وعدت الى داخل البيت. وجدت سعيد يقف وسط الصالة يمسك بالهدية التي عافها ابنه، وسمعت في هذه الأثناء صوت انغلاق أبواب السيارة ثم دويها وهي تبتعد. حاولت أن أخفف عنه. نصحته ألا يكدر نفسه. "سوف يأخذ لعبته في المرة القادمة!" نظر الى وجهي في صمت. بدا نائيا مرة أخرى! أخذت من يده اللعبة، فاستدار ومشى الى

غرفته، بخطوة عسكرية، ناصبا قامته ومتنكبا بندقية وهمية، ذراعه اليمنى ممدودة باستقامة يؤرجحها الى الأمام والى الخلف، مع وقع خطواته على الأرض، كأنه في ساحة تدريب، أو في استعراض أمام القادة! ثم دخل غرفته. عندما شعر بي أدخل وراءه التفت وقال لي بصوت مرهق "اتركيني وحدي!"

١٣

تقف مترددة. تلتفت الى فاتن. تقول حائرة "يبدو أننا أضعنا الطريق!". كانتا قد غادرتا البيت مع الفجر، بعد أن أودعتا الطفلين لدى الجيران. قطعتا طريقا طويلا حتى وصلتا

الى هذا المكان. شاهدت حشدا من النساء والرجال يتجمهرون في الشمس، في فسحة واسعة من الأرض، وصفوف من سيارات أجرة وسيارات خاصة تقف بجانب سياج سلكي طويل يعلو نحو مترين عن سطح الأرض، يحيط بمجموعة من الأبنية المصنوعة على عجل بأشكال مختلفة، أكثرها بسقوف عالية محدبة، كأنها مستودعات لخزن البضائع، أو مصانع ربما. رأت عربات صغيرة في أطراف الساحة يبيع أصحابها المأكولات الخفيفة والمرطبات. وسمعت ضجيجا على باب حديدي كبير في السياج الطويل يحرسه رجلان مسلحان ينهران الناس ويبعدانهم عن الباب. قالت لها فاتن "لا، لم نضع الطريق. هذا هو المكان. ألا تشمين الرائحة، وترين كل هؤلاء الناس الذين جاؤوا مثلنا!؟" كانت فاتن قد ارتدت ثيابا قاتمة ولم تتزين، مع ذلك فأن عيون الرجال كانت تلاحقها بإلحاح، برغم انشغال كل واحد منهم بفجيعته. كانت تبدو أكثر جمالا بثيابها المحتشمة، وشالها الأسود المخرم، بذوائبه الطويلة الساقطة على

صدرها، ووجهها الحزين وآثار الدموع في عينيها الكبيرتين اللامعتين. "وددت لو لم أجيء بها معي، الى هذا المكان المليء بالرجال! الا أنها زوجته، ولا يحق لي أن أمنعها من المجيء للسؤال عنه." تقتربان من الحشد الصاخب أمام المدخل. تقفان مترددتين. هل يتوجب عليهما أن تتدافعا، بين كل هذه الهياكل المتحفزة للدخول!؟ الجنديان المسلحان يعترضان الرجال والنساء الذين يحاولون المرور. وأحدهما يصيح مهددا "قفوا في طابور منظم مثل بني آدم!" يرتفع صوت امرأة فوق الضجيج "وهل جئنا نشتري جبنا أو بيضا حتى..!" تؤيدها أصوات أخرى محتجة. غير أن الجندي الذي طلب أن يقفوا في طابور يتقدم نحو المرأة، التي تسببت في فورة الاعتراضات تلك، يضع فوهة بندقيتة في صدرها ويقول محذرا "ترجعين والا..!" تصيح المرأة "وماذا ستفعل!؟ تقتلني!" يحرك الجندي أقسام بندقيته، فتخشى المرأة اختبار صحة تهديده، وتتراجع الى الوراء، هي والآخرون، ثم يبدأ الرجال والنساء بتشكيل طابور غير منتظم في البداية، اذ تسعى كل عائلة الى الوقوف في أقرب مكان الى المدخل، وسط الاحتجاجات والتدافع والرجلان المسلحان يحشران، في ثنايا الطابور، أولئك الرجال والنساء الذين يحاولون مخالفة النظام، مستخدمين كعوب البنادق أحيانا. ونأخذ لنا مكانا في الطابور، يبعد مسافة ليست بالقصيرة عن المدخل. وينتظر الرجال والنساء، ظلالهم تستلقي في الشمس على الأرض المتربة بجوارهم. ويهدأ الضجيج.. يتحول الى لغط متذمر. الا أن رجلا وامرأة كانا يتشاجران صوتاهما يعلوان فوق اللغط. كانت المرأة ترفع صوتها متعمدة لإثارة انتباه المتجمهرين، وكسب تأييدهم في نزاعها مع الرجل، ويداها

تدفعانه تحاول اخراجه من الطابور. كانت تصيح في الوجوه الكئيبة "يا جماعة! هذا الرجل الذي ما يخاف من الله هجرني أكثر من عشرين سنة وجاء الآن..!" غير أن بقية كلماتها تضيع وسط موجة من الصراخ والعويل ترافق صندوقا خشبيا ملفوفا بقماش العلم الوطني الملون، يخرج به عدد من الرجال، من باب جانبي صغير. ويتحرك الموكب بحمولته، والرجال يتحركون في صمت بوجوه متجهمة، في حين تدور أربع أو خمس نساء في حركات مخبولة حول التابوت المحمول على أكتاف الرجال عويلهم يملأ الفضاء. وتمزق امرأة شابة (لعلها أرملة النائم في الصندوق) ثوبها من فتحة العنق حتى السرة، ويظهر لحمها الذي عرته بلا تردد، في نوبة الفجيعة تلك، أقرب الى البياض، وقد احمر من شدة اللطم، والرجال الذين يحملون الجنازة منشغلين عنها، يساعدون السائق على ربط التابوت فوق سطح السيارة، وعيون الرجال في الطابور تحملق الى عري المرأة التي بدت - في حركاتها اللاثبة تلك-كأنها ترقص من فرط اللوعة! ويركب أهل الشهيد مع الصندوق الذي يبدو زاهيا في الشمس بغطائه الملون، في حين تنحشر النساء النائحات في سيارة ثانية. وتتحرك السيارتان الواحدة وراء الأخرى، ويبتعد هديرهما. ويسمع المنتظرون صرخة المرأة الشابة التي كانت تطل برأسها من نافذة السيارة ذراعاها مشبوحتان نحو الصندوق الهارب من أمامها. وتعود الوجوه مرة أخرى تتطلع الى المدخل. ويسمح الحارسان لأفراد عائلة أخرى بالدخول الى مستودع الجثث، ويتحرك الطابور الى الأمام قليلا. ومن جديد يعلو صخب العراك بين المرأة وزوجها، الذي تقول انه هجرها، كأنهما كانا في هدنة قصيرة. وينتفض الحارسان عند المدخل، ويقفان في هيئة استعداد،

اذ يخرج في تلك اللحظة ضابط طويل في نحو الثلاثين يحمل مسدسا على ردفه. يتوقف عند المدخل، يتفحص الواقفين في الطابور. بعد ذلك يتقدم بخطى متمهلة، العيون تتوجه اليه. ويخمد اللغط. غير أن المرأة، التي لم تكف عن محاولتها اخراج غريمها من الطابور، تنتهز فرصة وجود الضابط فتواصل عراكها مع زوجها بصوت أكثر صخبا، في حين يخفض زوجها من صوته في توجس. يقترب منهما الضابط، ويتساءل في انزعاج "لماذا هذا الصياح!؟" تتضرع اليه المرأة. "الله يخليك ابني، ويطول في عمرك! أنا امرأة فقيرة، والمرحوم الذي جاؤوا بجثته اليكم كان ولدي الوحيد!" صاح الرجل "وأنا أبوه، سيدي! أنا أبوه!" قالت المرأة "أبوه بالاسم! سيدي هو هجرني قبل أكثر من عشرين سنة، وابني ما يزال رضيعا. وحتى أربيه اشتغلت ..!" لكن الضابط يقاطعها ضجرا "خلاصة الكلام!" قالت صوتها يتهدج "كان في الثامنة عشرة عندما أخذوه وراح مني..راح!" وأخذت تبكي. قال لها الضابط "لا فائدة من البكاء الآن! قولي ما هي المشكلة؟" "المشكلة يا ابني، بعد كل هذي السنين جاء حضرته الآن عندما عرف أن الولد استشهد! جاء..!" قال الضابط يقاطعها مرة أخرى "فهمت! جاء يطالب بالتعويض!" قال الرجل: "لا والله سيدي! أنا جئت حتى أقوم بالواجب، فهو ابني أيضا!" يلمح الضابط وجه فاتن الواقفة في الطابور فيفقد اهتمامه بمشكلة الزوجين المتخاصمين. يقول للمرأة بعجالة "المسألة بسيطة. تقاسما بينكما التعويض عن استشهاد ابنكما! دعي أباه يأخذ السيارة، وأنت خذي قطعة الأرض!" ويتحرك مبتعدا، وراؤه يتردد صوت الأب المبتهج وصوت الأم المخذولة. يأتي ويتوقف بجوار فاتن. يسألها "وأنت عمن

جئت تبحثين!؟" تنظر اليه بانكسار وتقول: "أنا جئت أسأل عن زوجي. لست متأكدة من..!" يسألها "وفي أية معركة سقط؟" تذكر له اسم المعركة. أرقبه صامتة وهو يكلمها. يسألها "هل أنت متأكدة أنه سقط في هذه المعركة بالذات؟" فأتدخل عندئذ بالكلام. أخبره أن أحد الذين كانوا هناك جاءنا الى البيت وذكر لنا أنهم رأوه يسقط. وبعد ذلك اضطروا الى التراجع، لكنهم لمحوه بالناظور ممددا بين الأشواك، في الأرض الحرام، مع جثث أخرى من الطرفين. لا يلوح عليه الارتياح لتدخلي في الكلام. ينظر الى فاتن "وهل هذه المرأة معك؟" تقول له "هي أخت زوجي." يلقي عليها نظرة سريعة، ويعود باهتمامه الى فاتن. يقول لها ان عليه أن يدقق في الأسماء وهي كثيرة. يصمت قليلا عيناه تتأملان وجهها، ثم يقول "تعالا معي!". تخرجان من الطابور وتتبعانه. لا يذهب بهما باتجاه المدخل، انما يمشي أمامهما بمحاذاة السياج الطويل، الذي ينعطف قبل الوصول الى الشارع العام بمسافة نحو خمسين مترا. يتبعانه وهو ينعطف ليواصل المسير لبعض الوقت، بخطى سريعة، تاركا مسافة بينه وبينهما. وقبل أن يصل بهما الى نهاية هذا الضلع من السياج يتلكأ، ثم يتوقف عند باب صغير يحرسه فتى مسلح. يقول له شيئا، ثم يواصل خطواته العجلى. يدخلان وراءه، والرائحة الغريبة لا تفارقهما، وان بدت أخف قليلا. تسيران وراء الضابط متجاورتين، في ممر مرصوف بالاسمنت، يخترق مساحة مفتوحة من الأرض تتكدس فيها على الجانبين مقادير كبيرة من شرائح الخشب مصفوفة بعضها فوق بعض، في أكوام بارتفاعات مختلفة. ويظل الضابط الشاب يقودهما، ولكن على مسافة نحو عشرين مترا، ظله الطويل يسايره منزلقا على الأرض.

ومن خلال الفتحات في أسلاك السياج يبدو لها طابور الرجال والنساء المنتظرين في الشمس، عند المدخل الكبير بعيدا. تشعر بالارتياح اذ لا أحد يدري متى كان سيجيء دورهما للدخول. تقتربان من بنايتين كبيرتين متقابلتين، على جانبي الممر، بسقوف محدبة عالية، تنبعث عنهما أصوات مكائن تدور وأخشاب تنشر، ومسامير تدق، ولغط رجال يعملون. كانتا مصنعين لاعداد التوابيت للشهداء، وخياطة الأعلام التي تلف بها التوابيت، قبل أن تسلم الجثث الى ذوي القتلى. تشاهد عبر الأبواب الواسعة لاحدى البنايتين، أعدادا كبيرة من التوابيت المصنوعة حديثا مكدسة بعضها فوق بعض، على امتداد الجدران، مئات من الصناديق الجاهزة فينقبض قلبها. من أبواب المعمل المقابل تلمح أطوالا من الأقمشة الملونة تتهدل من العديد من مكائن خياطة تدور في ضجيج متواصل. ويضيق الممر من جديد عندما يخرجان من الظل الكثيف بين هاتين البنايتين. وبعد مسيرة نحو ربع ساعة، تحت أشعة الشمس يدخل بهما الضابط بين صفين من الغرف المتلاصقة. غير أن الرجل الذي يجرهما وراءه بوعد غامض لا يتمهل. تلمح من خلال الأبواب والنوافذ رجالا منشغلين بالكتابة، أو بالضرب على آلات طابعة، بين صفوف من الخزانات الحديدية لحفظ الملفات. وقبل بلوغه نهاية الممر يتوقف الضابط الشاب أمام باب احدى الغرف، يفتح بابها وينتظر. عندما يصلان يقول لهما "تفضلا! هذه غرفتي!". تشم في سماء الغرفة رائحة عطر غريب، تخالطها رائحة تبغ محروق، ويبدو لها هذا المزيج من الروائح مثل غشاء مهلهل يحيط بتلك الرائحة التي لا تقهر، والمتصاعدة من داخل العنابر التي تتكدس فيها الجثث. يشير الى ديوان عريض يقابل مكتبه، ويطلب منهما أن تجلسا.

لكنه يظل واقفا. يتناول قنينة عطر ملونة من فوق مكتبه ويرش رذاذا أبيض، في أرجاء الغرفة الواسعة. تطوف بعينيها تتأمل الأثاث، كما تفعل ذلك فاتن أيضا مبهورة. تشاهدان منضدة عريضة أنيقة، على جانب منها جهاز تلفون أبيض، وفي منتصف المكتب، قريبا من الحافة، مزهرية متوسطة الحجم من الكريستال فيها باقة ورد نضرة. وراء المنضدة مقعد جلدي دوار خلفه نافذة عريضة تنسدل عليها ستارة مزركشة، وعلى الأرض سجادة حمراء. وفي احدى الزوايا مجمدة صغيرة يقابلها على الجانب الآخر مشجب تتدلى منه منشفة بيضاء. الديوان الذي جلستا عليه كان وثيرا ومريحا، يقع تحت نافذة صغيرة مسدلة الستائر. وعلى كل جهة من جانبي الديوان تنتصب خرطوشة قذيفة مدفع تمتلىء رملا. على سطح الرمل يتناثر رماد وأعقاب سيجائر. في الجدار المطل على الممر تنحشر مكيفة هواء تبعث بطنينها وهوائها البارد في فضاء الغرفة. (تود لو أزاح الضابط الستائرعن النافذتين. تحس كأنها وفاتن محاصرتان بالجدران والستائر، وهما وحدهما معه! لكنه لا يفعل). ينتهي الرجل أخيرا من تعطير غرفته. يخلع (البيرية) ويعلقها على المشجب، ثم يخرج علبة سيجائره وعلبة ثقابه من جيبه، ويمد يده بعلبة السيجائر الى فاتن. تلتفت نحوي حائرة، ثم ترفع رأسها اليه. تقول معتذرة " العفو، أستاذ، أنا لا أدخن!". يرنو الى وجهي معاتبا "لماذا لا تتركينها تدخن، تخفف عن نفسها!؟" أقول له "هي لا تدخن" يحول علبة سيجائره نحوي.

"ولا أنا، أستاذ!". يعود الى مكتبه، ويجلس على مقعده الجلدي الدوار، شعره المائل قليلا الى الشقرة يلمع تحت ضوء المصابيح. يوقد

سيجارة لنفسه، يأخذ منها نفسا طويلا. يفعل ذلك عدة مرات حتى يمتلىء هواء الغرفة بالدخان تقريبا. يقول "أنا آسف. من التجربة اكتشفت أن دخان السيجائر هو وحده الذي بوسعه أن يغطي قليلا على هذه الرائحة المشؤومة؛ اذا كان الواحد منا بعيدا عن ساحة التجميع والعنابر بالطبع.أما اذا كان قريبا فالله في عونه!" لا يبدو عليه الاستعجال وهو يتكلم. تبادره قبل أن يسترسل في كلام لا يعنيهما. "أستاذ حضرتك وعدتنا أن تدقق في القوائم!" لا يرتاح لمقاطعتها له. يقول "نعم، القوائم!" يضغط على جرس فوق مكتبه، الذي تتناثر عليه بعض الأوراق بغير نظام. يقول "سوف أستعرض كل الأسماء لأرى ان كان .. ولو أنني أشك في أنها وصلتنا!" تتطلع اليه فاتن مستبشرة "قصدك أنه..ربما!" قبل أن يرد عليها يسمع نقر خفيف على الباب ثم يدخل أحد الجنود، يضرب الأرض بقدميه وينتظر الأوامر. يقول له الضابط " أحضر لي قوائم قتلى المعركة الأخيرة بسرعة!" ينسحب المجند من الغرفة فينظر الى فاتن. "قلت ان الذي أخبركما ذكر أنهم شاهدوه يسقط، وأنهم لمحوه بعد ذلك بالناظور ممددا في الأرض الحرام." تقول له فاتن "هذا ما قاله لنا الرجل." يتأمل الضابط وجهها الحزين، وعينيها التي بدأ الدمع يترقرق في مآقيهما (كان حزنها عليه صادقا وقتها، لذلك أنا لا أفهم كيف تغيرت بعد ذلك!). يقول الضابط "بصراحة هناك احتمالات كثيرة. اذا كان في الأرض الحرام فلا أحد يعرف الآن متى تستعاد هذه الأرض، وبالتالي تستعاد الجثث الساقطة هناك" يتمهل في الكلام ويأخذ أنفاسا من سيجارته عيناه لا تفارقان وجه فاتن المترقب. "الاحتمال الآخر ألا تكون الجثة التي لمحوها من بعيد هي جثته. ربما كانت..!" تتساءل فاتن بلهفة "صحيح، أستاذ، ليست هي!؟"

ويداخلني الأمل أنا أيضا في أن تتحقق ظنوني من أنه لا يزال حيا في مكان ما. يأتي الفتى بالقوائم ويترك الغرفة، فيضع هو راحة يده فوق مجموعة الأوراق. يقول "في حمى المعارك تختلط الجثث، ويغدو من الصعب أحيانا التمييز بين شهدائنا وقتلاهم. هل تصدقان أننا نتسلم أحيانا جثث قتلى من الأعداء تشحن الينا خطأ، عندما لا يكون على هذه الجثث ما يشير الى هويتها! ولكن عندما ينجلي الموقف.." تتعلق فاتن بكلماته "يعني، أستاذ، حضرتك تعتقد..!"

يبتسم لها. "أنا لست أستاذا. اسمي منصور! ما أريد أن أقوله هو أنك لا تقدرين أن تتأكدي من موته، ما لم تشاهدي..!" أشعر بالانزعاج، فأنا أريده يدقق في قوائم الأسماء، بدلا من التحديق الى وجهها طوال الوقت. ومن الانصاف أن أذكر هنا أنها ما كانت تشجعه - ليس في البداية على أية حال. يسألها أخيرا "وما هو اسم زوجك؟" أقول له "اسمه سعيد محمد المطلوب". يضع سيجارته بين شفتيه، يتناول قلما، وينظر في الأوراق مارا بطرف قلمه على الأسماء. تخرج فاتن منديلا صغيرا من حقيبتها اليدوية، تمسح بها ما علق في أهدابها من دموع، ثم تعيد المنديل الى الحقيبة، وتترك كفيها تستريحان مستسلمتين فوق الحقيبة السوداء النائمة في حضنها. يواصل الرجل قراءة الأسماء في صمت، وهما تتأملان ما يطرأ على ملامح وجهه من تغيير بعيون وجلة. غير أن وجهه المسترخي لا ينم عن شيء. يسمعانه يتكلم يده تقلب احدى الأوراق لينظر في الورقة التي بعدها. "في الحقيقة أكثر هؤلاء جرى تسليمهم الى ذويهم!" لا تقولان شيئا. في هذه الأثناء يحمل الهواء هدير شاحنات ثقيلة تتحرك في دروب المستودع. يستدير

الضابط. يزيح جانبا من الستارة عن النافذة وراءه. يسمعانه يتمتم منزعجا "سيل لا ينتهي!" ثم يلتفت اليهما ويبتسم كأنه يعتذر. لكنهما لا تفهمان سبب انزعاجه. من مكانهما ما كان بوسعهما أن تريا ما رأى. يعاود الضابط قراءة أسماء القتلى، وكان كلما مكث طرف القلم مترددا لحظة صغيرة عند اسم يضطرب قلباهما فزعا، وحين ينتقل الى اسم آخر يعاودهما الهدوء قليلا. ينتهي الضابط من قراءة الأسماء كلها. يرفع رأسه وينظر الى وجه فاتن المشدود، ويقول لها "ما موجود! كثيرون باسم سعيد، ولكنه ليس بينهم!" أشعر بالارتياح، وتتنهد فاتن مستبشرة. "الحمد لله!" الا أنه يضيف "ولكن قد تصلنا الجثة في وقت لاحق، اذا كانت..!" يكفهر وجهها، وأتمنى لو أنه لم يتفوه بتلك الملاحظة المشؤومة. يقول بعد لحظة صمت "أو لعلها وصلتنا بلا اسم ولا عنوان، وجرى خزنها مع المجهولين. تستطيعان بالطبع مشاهدة هؤلاء. ومن جانبي سأدقق في أسماء تلك التي تصلنا اليوم والأيام القادمة. فاتن ترعبها فكرة التطلع الى وجوه الموتى. يقول لها "تعالي كل يوم. تعالي وحدك. لا ضرورة لأن تتعبي أخت زوجك". لكنني أعترض بلهجة قاطعة. "سوف أحضر أنا أيضا، فهو ليس أخي فقط، بل ابني الذي ربيته!" يتأملني صامتا، ثم يقول "وأنت أيضا اذا أردت." ويلتفت بوجهه اليها. "عندك منه أطفال؟"

"عندي اثنان. واحد أكمل الخامسة والثاني يقترب من الثالثة." يتهدج صوتها. الغريب أنني لا أشعر بتلك الرغبة الملحة في البكاء. شيء واحد كان يشغل تفكيري هو البحث عنه بلا توقف لأتحقق ان كان ميتا أم أنه لا يزال حيا في مكان ما-أسيرا لدى الأعداء ربما. ما كنت أحس بذلك الوجع الذي يمزق القلب. والبكاء اعتراف بالخسارة،

واستسلام نهائي للقدر. أسمعه يواسيها. "لا تفقدي الأمل قبل أن..!" وفي تلك اللحظة نسمع طرقا على باب الغرفة، ثم يظهر أحد الجنود في مربع الباب. يقول "العفو سيدي! أبو الهادي يريد جنابك بالساحة! وصلت وجبة جديدة!" يسأله الضابط. "كم شاحنة؟" يقول له "عشر شاحنات،

سيدي!" يزفر في ضيق "رأيت القافلة تدخل، لكنني لم أعدها. طيب." ينسحب المبعوث، وينغلق الباب. يطفىء الضابط عقب سيجارته، ثم ينهض متثاقلا. "حقيقة أنا آسف جدا!

يتوجب عليّ أن اذهب الآن الى ساحة الاستلام. تعالا صباح الغد!" ويشد حزامه العريض الذي أرخاه وهو يجلس. أقول له وأنا أنهض معترضة طريقه. "جنابك قلت ان بوسعنا أن نرى هؤلاء الذين بلا اسم ولا عنوان." يقول " أكيد، ولكن ليس اليوم. لدينا عمل كثير!"

"ننتظر."

يضحك.

يتناول (بيريته) من على المشجب ويضعها على رأسه. فاتن التي وقفت هي أيضا لا تقول شيئا.

"تنتظران!؟"

يواجهنا بقامته المديدة وهو لا يزال يضحك.

"أتعرفان كم من الوقت يستغرق افراغ عشر شاحنات معبأة بالجثث، وتخليص الأجساد مما بقي عليها من سلاح وعتاد، وتنظيفها من الدماء والأوحال.."

تمتد يده الى سطح المكتب تلتقط علبة سيجائره وعلبة ثقابه.

"ومئة شغلة وشغلة أخرى، قبل وضعها في الصناديق وخزنها في العنابر. لا. بقاؤكما مستحيل! سوف تتأخران كثيرا. تعالا غدا أحسن"

يتهيأ للخروج فألح عليه بالرجاء. "اننا ما زلنا في ساعات الضحى، ولدينا الوقت حتى المساء. تعبنا اليوم حتى وصلنا الى المستودع، وليس عندنا ما نفعله في البيت فدعنا ننتظر. أرجوك!"

ينظر الى وجه فاتن التي تبدو كسيرة ويائسة. يسألها.

"وماذا عن طفليك!؟"

ترفع اليه عينيها المبللتين.

"تركتهما عند الجيران."

يبدو مترددا. عيناها تلتمسانه أن يوافق على بقائنا في غرفته.

فيستسلم لرجائها الصامت.

"طيب، ما دامت هذه رغبتكما."

ثم يضيف منبها.

"اذا سألكما أحد ماذا تفعلان هنا قولا له نحن قريبات المساعد منصورغانم."

يتمعن في وجه فاتن المحتقن.

"وكفكفي أنت دموعك، فالوقت لا يزال مبكرا على البكاء!"

يستدير ويغادر الغرفة مسرعا، وينغلق الباب.

لكم بدا صبورا، ومتعاونا، ورقيقا، هذا الوغد منصور الذي استطاع أن يغويها، و يزني بها فيما بعد!

١٤

تغلق باب السيارة، وتمدد ساقيها في الفسحة الرحبة أمامها، وتنظر اليه.

"أين تركت الصغير؟"

"أين تريدينني أتركه. عند أختي طبعا."

يتكلم عيناه على الطريق. تجلس صامتة تتأمل ضفاف النهر وسطح الماء والبيوت البعيدة على الشاطىء الآخر، والأشجار تنزلق متراجعة على يمينها، والجدران والأبواب والنوافذ، التي غادرتها الشمس، تتحرك على يسارها. وفوق الجسر الحديدي، الذي بدا قاتما، تواصل السيارات، التي لم توقد مصابيحها بعد، حركتها الدائبة. ترنو الى النهر. تلمح صبية عراة يتراكضون على لسان من الرمل يمتد من الجرف الى داخل الماء، عند الشاطىء البعيد. كان بوسعها سماع صرخاتهم المرحة القادمة مع الريح. تلمح رؤوسا سودا تتقارب وتتباعد فوق سطح الماء فتشعر بقشعريرة برد، مع أن هواء تموز كان ساخنا، حتى بعد غروب الشمس. ثم يختفي المشهد من أمام عينيها- النهر والشاطىء الرملي واللسان الداخل في مجرى الماء والصبية العراة ورؤوس السابحين والبيوت والأشجار على الجانب الآخر- عندما تنعطف بهم السيارة، وتغادر طريق النهر لتدخل في حركة المرور في الشارع العام. يلقي عليها منصور نظرة مندهشة.

"أشوفك ساكتة!"

"ماذا تريدني أقول!؟"

يناور بسيارته، بين حركة السيارات الأخرى، محاولا تجاوزها.

"وكيف كانت زيارتك الى بيت المجانين هذه المرة!؟"

"لا بأس بها."

وتود ألا يطرح عليها مزيدا من الأسئلة.

"ألم يعرض أمامكم سعيد مشهد الجثة الممددة على الأرض؟"

"لا. لم يفعل هذه المرة."

تشعر بالهواء يتدفق عليها من نافذة السيارة، يعبث بشعرها حاملا معه روائح بنزين ودخان وهدير سيارات تتخاطف، والبيوت والأشجار، والأرصفة على جانبي الطريق بما عليها من عابري سبيل، تقتحم عينيها وتمضي مسرعة لتفسح المجال لمزيد من المشاهد المتتابعة المندفعة نحوها، وهي تجلس ساكنة لصق باب السيارة تحدق أمامها في شرود. يطل منصور بوجهه من نافذة السيارة ويشتم سائقا كان يقود سيارته متباطئا أمامه، ثم ينعطف بالسيارة في شارع أقل زحاما. يقول لها:

"تبدين منزعجة! ماذا حدث أثناء الزيارة!؟"

"ماذا تريد أن يحدث يعني؟"

"لا أدري. كل شيء جائز مع تلك المرأة المنحوسة وأخيها المخبول!"

يصيح ابنها الكبير وراء ظهرها:

"ذاك الرجل أراد أن يضربها!"

يضغط منصور بقدمه على كابح السيارة فتنحرف في حركة مباغتة تجعل العجلات تصرخ على اسفلت الشارع. ثم تتوقف السيارة برجة عنيفة تجعل جسدها يختض. تنظر اليه خائفة.

"لماذا توقفت!؟"

"هل ما قاله ابنك صحيح!؟"

يستدير اليها ويمسكها من كتفيها. تتمتم مضطربة.

"لا طبعا. أنت تصدق كلام طفل!"

لكن طفلها الكبير لا يسكت.

"أراد أن يضربها وأنا ضربته في بطنه، وعمتي ساهرة أبعدته عنها!"

تود في تلك اللحظة لو أمسكت بابنها المشاكس وأوسعته صفعا. ترى الغضب يشتعل في عيني منصور وهو ينتظر منها ايضاحا. تتحاشى النظر الى عينيه. تتمتم مرتبكة:

"أنا أقول لك ما حدث بالضبط. هو في الحقيقة جلس على التخت يتأملني، يحاول أن يتذكر اسمي. تصور منصور حتى اسمي ما عاد يتذكره!"

تحاول أن تبدو مرحة. تطلق ضحكة صغيرة متشنجة.

"قلت له أنا فاتن. ألا تتذكرني!؟ أنا كنت .. قلت له أنظر الى وجهي..أنظر!"

تسكت، وتنظر الى وجه منصور الذي يبدو ملتهبا وهو يستمع اليها، عيناه المتسلطتان المرتابتان تحاصرانها. تهرب من عينيه بالنظر الى الشارع. تتعلق نظراتها برجل وامرأة يمشيان على الرصيف متمهلين قريبين من السيارة المتوقفة؛ تراهما في ضوء مصابيح الشارع، والرجل يمسك بكف المرأة بحنان، ذهنها في هذه الأثناء يعمل بسرعة، بسرعة يبحث عن عذر ملائم.

"قلت له أنت نسيت! أنا كنت.. فراح يهذي بكلام غريب عجيب! بعد ذلك قام من مكانه، وجاء صوبي حتى يتمعن في وجهي جيدا ويتذكر. وفائز لما شافه يقترب توهم أن أباه يهم بضربي. بعدين ساهرة أرجعت أخاها الى مكانه على التخت. أخذته من يده مثل طفل وأجلسته في مكانه. مسكين هذا سعيد! عقله راح منه تماما! أنا أبدا ما كنت أتصور!

العمل الذي قام به في المرة السابقة عندما كنت أنت معنا، وكلامه المخربط هذه المرة!"

يسقط منصور يده عن كتفها القريبة من النافذة، الا أنه لا يقوم بأيه حركة أخرى. ترجوه بصوت متخاذل.

"لا تبق واقفا بالسيارة هكذا. تأخرنا على الصغير، وأختك الآن.."

تضع كفها على ساعده العاري.

"يالله منصور، تحرك!"

يسألها مرتابا، الشر لا يفارق عينيه:

"أهذا كل ما حدث!؟"

"نعم، مثلما قلت لك."

تحس قلبها يخفق بشدة خشية أن يفتح ابنها الكبير فمه مرة أخرى، ويقول ان أباه تحسس وجهها بيديه. الا أن ابنها يظل صامتا. تسمع زوجها منصور يقول مهددا:

"فاتن، شوفي زين! يكون مفهوما عندك وعند كل الناس أن لا أحد على وجه هذه الأرض يجرؤ ويلمس شيئا يخصني أنا ويفلت مني سالما بجلده!"

تقول له:

"طبعا. من هذا المجنون الذي يجرؤ على التجاوز على ممتلكات منصور غانم الشخصية!"

تحاول أن تمزح معه، غير أن عينيها لا تزالان ترمقانه في وجل.

يتابع محذرا وهو يدير محرك السيارة:

"ولا زيارات أخرى الى ذلك البيت الملعون!"

ويتحرك الشارع.

"فأنا أكره ذلك المجنون الذي كان زوجك، وأكره أختك التي لا تقل عنه جنونا، بوجهها المتجهم دائما، وأكره بيتهما المشؤوم!"

تقول له بنبرة مهادنة:

"ولكن ولديه.. كيف نمنع عنه ولديه!؟"

يقاطعها بحدة:

"أنا اتخذت قراري!"

مهما يكن الأمر فهي لا تريد أن تحرم سعيد من رؤية ولديه، وان كان هو لا يكترث لهما كثيرا، كما يبدو. ومن حق الولدين أيضا أن يتعرفا على أبيهما، برغم ظروفه الصحية. أضواء مصابيح السيارات المقبلة تشع في عينيها وتمضي. تنظر الى وجه منصور. تبدو ملامحه أقل توترا. تتجرأ وتقول:

"ربما..أقول ربما ذهبت ساهرة واشتكت علينا في المحكمة. زوجها محام، أنت تعرف."

يقول لها:

"عندئذ سوف أثبت للمحكمة أن أباهما مجنون، ويشكل خطرا على سلامتهما!"

تهم أن تقول لمنصور ولكن لماذا كل هذا العناد. نحن لسنا في حرب مع ساهرة وأخيها!

لكنها تخاف أن تثير غضبه من جديد، بعد أن هدأ قليلا. سوف تناقشه في هذا الموضوع عندما يكون مزاجه رائقا..تناقشه في الليل حين تأوي معه الى الفراش ويغدو وديعا بين فخذيها. تفاجأ بالسيارة تنعطف بهم باتجاه الطريق السريع.

"ولكن لماذا من هنا!؟"

"أحس ما مرتاح!"

"والصغير الذي عفته عند أختك من العصر!"

"نأخذه بعدين."

يدس شريطا في مسجل السيارة أمامه. تسكت مذعنة. تعرف عاداته. كلما انزعج من شيء هرع بسيارته الى الطريق السريع، وراح يقودها بسرعة مجنونة، من أجل أن يهدىء من ثورة أعصابه. تجلس صامتة وهو ينطلق متجاوزا السيارات المتحركة أمامه على الطريق المفتوح، وقضبان السياج الحديدي الأبيض على يمينها تتراجع في تتابع سريع فيما يشبه شريطا أبيض متصلا خاليا من الفواصل تقريبا. يتقافز ولداها على المقعد الخلفي،

ويصرخان في مرح.

"اسرع بابا! اسرع! لا تخلي سيارة تغلبنا!"

كلماتهما الصاخبة تختلط بصوت مطربة تغني وآلات موسيقية تعزف، ومؤشر السرعة يواصل في هذه الأثناء صعوده المخيف، والهواء يتدفق من النافذة ويعصف بشعرها، ويشيل أطراف الثوب عن فخذيها. تسارع برفع زجاج النافذة، وتمد يدها لتشغل مكيفة الهواء، لكنه يقول لها آمرا:

"لا تفتحيها! محرك التبريد يؤثر على السرعة، وأنا أريد السيارة تطير!"

تسحب يدها. تسمعه يدندن مع الأغنية أصابعه تضرب على اطار المقود. تتضرع اليه:

"منصور، أرجوك، لا بهذه السرعة! سوف تقتلنا!"

"لماذا لم تتركي الهواء يلاعب فخذيك!"

يمد يده الى فخذها القريب. يزيح طرف الثوب. تشعر بكفه الكبيرة الساخنة تحط على لحمها العاري. تدفع يده وتستر عريها.

"أرجوك، منصور، شوف الطريق أمامك أحسن!"

وولداها، في هذه الأثناء، يشجعانه على زيادة السرعة.

يضغط على معجل البنزين، وتعود يده ترفع قماش ثوبها، وتتحسس نعومة فخذيها، وتتحرك صاعدة نحو ملتقى الفخذين. تنبهه بصوت خفيض وهي تعترض كفه.

"الأولاد!"

يصيح بهما:

"فائز ومحسن! راقبا الطريق من النافذة الخلفية. أي سيارة تحاول تغلبنا أخبراني عنها!"

يدير الصغيران ظهريهما يرصدان حركة السيارات المقبلة وراءهما. وتواصل يد منصور حركتها الفاضحة بين فخذيها، بلا رقيب. تقول له:

"أنت مجنون، والله العظيم!"

"فخذك نار!"

تحاول، بلا جدوى، ازاحة يده عن لحمها الذي كان يلصف في العتمة، وينز عرقا تحت ضغط يده. تسمعه يرفع عقيرته بالغناء،

والسيارة تنطلق بهم كالقذيفة أضواؤها تنير الدرب الخالي. تتوسل اليه مذعورة:

"منصور دخيلك راح تقتلنا!"

يكف عن الغناء ويسحب يده. تغطي فخذيها، وتعود يده الى مكانها على اطار المقود، ويخفف قليلا من اندفاع السيارة. تشعر بشيء من الارتياح. يظل يجلس ساكنا يحدق الى الطريق. يرفع يده اليمنى عن المقود، يضعها على يدها المتشبثة بالمقعد، يمسدها بأصابعه.

الا أنه بعد قليل يطبق كفه على يدها المستسلمة ويجرها الى ما بين فخذيه. تنتزع يدها

بقوة، وتصرخ مفزوعة:

"انتبه! السيارة بدأت تنحرف!"

يقول لها ضاحكا:

"ألا تحبين أن تمسكي بصولجان الملك!؟"

"لا تكن بذيئا الى هذا الحد!"

يقهقه متسليا.

"من يسمعك يظنك شفيقة العذراء!"

يرتفع صراخ الولدين بغتة:

"اسرع بابا! اسرع! سيارة بيضاء لحقتنا!"

يتوقف منصور عن عبثه المثير. يضغط على معجل البنزين فتنطلق بهم السيارة تنهب الأرض من جديد. تنزوي في ركن المقعد، وتتمتم بكلمات لا يسمعها. يقول لها:

"لا تخافي! منصور غانم لا يموت بسهولة!

لكنها تغطي وجهها مرعوبة يداخلها احساس بدنو كارثة!

١٥

"الملازم منصور تأخر كثيرا!"

تنظر الى ساعتها.

"الخامسة بعد الظهر! أكثر من سبع ساعات ونحن ننتظر!"

تضيف منزعجة:

"ثم هذه الرائحة!"

لا تقول لها شيئا. قال ان استلام عدد كبير من الجثث يستغرق وقتا، لكنها أصرت على البقاء. أرادت أن ترى وجوه المجهولين من القتلى لكي تتخلص من أي شك. يرن جرس التلفون فوق المكتب. رن قبل ذلك أكثر من عشرين مرة ربما، ولم تتحرك أية واحدة منهما لترد عليه؛ فليس ذلك من شأنهما. غير أن المنادي لا ينتابه اليأس هذه المرة، ويظل الجهاز يواصل رنينه بإلحاح عجيب. ينفتح الباب ويدخل عليهما أحد الأفراد-فتى في نحو العشرين بملابس رسمية-يهرع صوب المكتب ويقول للمتكلم اللجوج ان المساعد غير موجود. ثم يعيد السماعة الى موضعها، ويبقى واقفا مكانه ينظر اليهما جالستين على الديوان.

"عفوا!"

فتندفع فاتن بلا مبرر.

"نحن قريبات المساعد منصور غانم."

"أهلا وسهلا!"

ولا تعجبني السهولة التي لفظت فيها فاتن كذبتها. الا أنني لا أقول شيئا. ويضايقني احساس بأنني متواطئة معها. تقول فاتن:

"هو ذهب الى الساحة. يقول وصلت شاحنات فذهب من أجل..!"

يقول الفتى وهو يتأمل وجهها.

"أعرف. أنا كنت هناك. أنا مراسل الملازم. كان قد أرسلني الى بيته لأشتري بعض الأغراض."

ويظل يتأمل وجه فاتن مبهورا؛ الذكور كلهم هكذا، ينظرون اليها مبهورين.

"ومتى ينتهون!؟ قصدي متى يرجع؟"

"جائز بعد ساعة..يمكن أكثر. بدؤوا الآن يضعونهم في الصناديق."

ولا يتحرك الفتى من مكانه بجانب مكتب المساعد. يظل واقفا هناك مستديرا بجسده نحوهما، ويده التي أعادت السماعة الى مكانها تستقر ساكنة فوق الجهاز، ذراعه الأخرى مسبلة، يحركها أحيانا حين يتكلم.

"انفجرت عندهم واحدة!"

يعلن لهما، ليعطي لنفسه مبررا للمكوث معهما في الغرفة فترة أطول. تنظر اليه فاتن غير فاهمة.

"واحدة!؟"

"قصدي جثة!"

"انفجرت!؟"

تتساءل فاتن بمزيج من الحيرة والانزعاج. أنا أيضا دهشت. كيف يحصل هذا !؟

"نعم انفجرت. ألا تلاحظان كيف أصبحت الرائحة أكثر فظاعة!؟"

يصمت قليلا، كأنه يريد أن يعطيهما الفرصة كي تتحققا مما يقول.

"أنا هربت من هناك. في الحقيقة لم يكن من واجبي أن..! استأذنت من المساعد وجئت.

المساعد أرادني أرى ان كنتما بحاجة الى شيء."

تقول له:

"شكرا. لا نحتاج شيئا."

يقول:

"لحسن حظي أنا لست واحدا من أولاد الخائبة، الذين عليهم أن يقوموا بهذا العمل الفظيع!

عندما انفجرت الجثة هربوا كلهم، ولكن الضباط أطلقوا النار فوق رؤوسهم، وأمروهم بالعودة فرجعوا، فهم يخافون ان رفضوا يبعثون بهم الى الجبهة!"

يحاول أن يبتسم. الا أن رؤيته للانطباع المرتسم على وجهينا يجعله يمتنع عن الابتسام.

ينزل يده أخيرا عن جهاز التلفون. يمسحها بقماش بنطلونه. في هذا الوقت يرتفع ما يشبه النداء في الممر. يتذكر الفتى أن عليه أن يذهب قبل أن يفتقدوه.

"يجب أن أذهب الآن."

غير أنه لا يذهب على الفور. يدس احدى يديه في جيب بنطلونه،

يدسها عميقا، عيناه على وجه فاتن، وعلى جسدها. وحين يلحظ أن وجوده ما عاد مرغوباً فيه يطرق برأسه،

وينفلت خارجا، يده لا تزال تمارس لعبتها السرية، في جيب بنطلونه، ويغلق الباب وراءه.

تلتفت فاتن نحوي:

"ماذا يقصد هذا الولد عندما قال..!؟"

"أنا مثلك حائرة! لا أدري كيف تنفجر جثة انسان من تلقاء نفسها!"

تنهض فاتن. تقف وراء مكتب المساعد. تقف أمام النافذة تتطلع الى ما يجري في الخارج، مستندة بردفيها الى ظهر الكرسي الفارغ، فيغوص الجزء الأوسط من حافة الكرسي العليا في لحم عجيزتها، وراء قماش ثوبها الأسود. تتكلم وظهرها نحوي:

"لا يزالون يعملون في ساحة الاستلام!"

تحرك رأسها قليلا.

"المسافة بعيدة! ما أقدر أشوفهم زين."

ترفع عجيزتها عن ظهر الكرسي. تلتصق بالنافذة، وتضع جبينها على لوح الزجاج.

"كثيرون يعملون هناك! رجال يكنسون الأرض، وآخرون يحملون ما يشبه الدلاء..نعم أعتقد أنها دلاء من البلاستيك وأحواض."

تلف أصابعها البيض الطويلة، حول المقبض المعدني القاتم لمصراع النافذة، على يمينها، وترفع ذراعها الأخرى. تضع راحة يدها على الزجاج على يسارها فيتهدل جانب من شالها الأسود في الفراغ المثلث بين حافة

نهدها الأيسر، وذراعها الممدودة.. تتهدل الذوائب السود الطويلة في خطوط مستقيمة متدرجة تفصل بينها شرائط من الضوء القادم من خارج النافذة.

"أشوف أيضا عددا من الرجال يتنقلون من مكان الى مكان..رايحين جايين، مخبوصين.

أربعة أو خمسة منهم يقفون على جانب لا يتحركون تقريبا. جائز هؤلاء شغلهم يصدرون الأوامر. أعتقد أن المساعد منصور واحد منهم، ولكن ما أقدر أميزه." تحرك يدها على لوح الزجاج. "كثيرون الذين يشتغلون في الساحة! ناس ينحنون فوق ال..آخرون يجلسون على الأرض ويجوارهم هذه الدلاء والأحواض التي حدثتك عنها. لكنني ما أقدر أشوف ما يفعلون!"

أقول لها ان المساعد قال انهم يغسلون عنهم الدماء والأوحال قبل أن..!

تسقط فاتن يدها عن لوح الزجاج وتلتفت نحوي.

"تعالي شوفي!"

تنهض من مكانها على الديوان وتقف بجوار فاتن أمام النافذة.

"يبدو ان شاحنة جديدة تدخل الى المستودع. جائز هو الآن..!"

يتهدج صوتها. تبدو مفجوعة حقا. "لم تكن تتظاهر بالحزن أمامي. وهذا ما جعلني أتساءل مندهشة كيف استطاع المخادع منصور أن يستميلها اليه فيما بعد، ويجعلها تنسى، في أيام قصيرة، زوجها الذي أحبته!" تظل واقفة بجوارها أمام النافذة، تتأمل بوجه جامد، وعيون خالية من الدموع ما يجري هناك في الساحة الكبيرة، التي تشبه ميدانا للكرة في رحابتها.

سقفها المرتفع مصنوع من ألواح الصفيح التي كانت تلمع في الشمس المنحدرة نحو الغروب. وتحت ذلك السقف كانت حركة الرجال المنهمكين بالعمل تبدو مبهمة. في الأرض المكشوفة بين ساحة استلام الجثث وغرف الادارة، كانت تتكوم أكداس من شرائح الخشب. تترك مكانها وتعود لتجلس على الديوان، وتضع رأسها بين كفيها، في حين تظل فاتن تقف في مكانها عند النافذة تخبرها عما تستطيع مشاهدته في الساحة البعيدة، بين وقت وآخر. ولا تعلق هي بشيء على كلامها، ولا ترفع رأسها لتنظر اليها، انما تظل مطرقة ينتابها نوع من الذهول. وتدهشها قدرة فاتن على الثرثرة، وهي في حالتها تلك. لعل هذه الثرثرة هي شكل من أشكال الهروب، بعيدا عن بؤرة العذاب، مثلما هي تهرب عن طريق الانكار وعدم التصديق بمقتل ابنها.

في نحو السابعة مساء يعود منصور غانم الى غرفته؛ لم يتبق على موعد الغروب غير ساعة تقريبا. يبدو مرهقا، الا أنه يبتسم لهما بلطف، ويقول مندهشا:

"قلت في نفسي انهما ملتا الانتظار، وانصرفتا."

ينزع (البيرية) يعلقها على المشجب، يعدل شعره بيديه ويتناول المنشفة البيضاء.

"العمل كان كثيرا اليوم! هذا يحدث عندما تكون هناك معارك كبيرة!"

يواصل الكلام يداه تمسحان العرق عن وجهه ورقبته.

"كنا نوشك أن ننتهي، وطب..دخلت المستودع شاحنة محملة جديدة!"

يعلق المنشفة على احدى أصابع المشجب، ويجلس على كرسيه. يرخي حزامه العريض،

ويتنهد بارتياح فاردا ساقيه الطويلتين تحت المكتب.

"ولا تدريان ماذا حصل أيضا!!

يخرج علبة سيجائره، من جيبه، ويوقد سيجارة يدس طرفها، في فمه. يواصل التدخين صامتا، عيناه على وجه فاتن. يلقي عليها هي نظرة سريعة و تبقى نظراته بعد ذلك عالقة بوجه فاتن، وهما تجلسان قبالته على الديوان تراقبان حركاته و تنتظران، و مكيفة الهواء تئن في سكون الغرفة. يضع أخيرا سيجارته، التي أحرق نصفها تقريبا، على حافة المنفضة،"أنا آسف. كنت بحاجة شديدة الى التدخين."

يبتسم معتذرا لأنه تركهما تنتظران وهو ينهل من دخان سيجارته صامتا من أجل أن يعيد لنفسه توازنها.

"أحيانا يبعثون الينا بشحنات من الأهوار. بعض الجثث تصلنا منتفخة، مثل البالونات، مليئة بالغازات والسوائل، بسبب بقائها في الماء لأيام. هذه تنقجر عند تحريكها، أو عندما تنتفخ فوق احتمال الجلد المتفسخ. و عندئذ..!" يتناول سيجارته ويعاود التدخين.

(الذي حمل اليهما النبأ قال لهما انهم لمحوها في الصحراء، بين الأشواك. اذن فالتي انفجرت اليوم لا يمكن أن تكون..) وفاتن ترنو اليه واجمة، عيناها فاغرتان، و هو يتأملها من خلال الدخان.

" الرائحة التي يعج بها الهواء تصبح عندئذ لا أدري كيف أصفها. الأفراد المكلفون بالعمل يهربون كل واحد الى جانب. إلا أننا نأمرهم بالعودة، و خوف العقاب يجعلهم يعودون مترددين، يعملون بيد و

يسدون أنوفهم باليد الأخرى. الأقنعة لا تنفع. و نحن نصرخ بهم من بعيد: شيلوها ! شيلوها بسرعة! يجرونها من الذراع تنمزع الذراع..من الساق تنخلع الساق و تأتي وحدها في أيديهم.. والبطن مفتوحة والمصارين على الأرض. بعضهم يحاول لملمة الأحشاء الساقطة، وسط السوائل والأفرازات، من أجل حفظها في كيس مع.."

يتوقف عن الكلام، اذ يرى وجه فاتن يتلقص وكفها تغطي فمها.

" أنا آسف. حقيقة آسف. ما كان ينبغي. أنا فقط أردت أن أبين لكما الأسباب التي جعلتني أتاخرعليكما!"

يبدو مرتبكا. و يرين صمت لبعض الوقت، و يوقد المساعد سيجارة ثانية. و تسقط فاتن كفها أخيرا بعد أن يهدأ قليلا احساسها بالغثيان. و يرنو هو الى ساعته.

" أيباه! النهار خلص تقريبا! لابد أنكما جائعتان الآن. أما أنا فميت من الجوع!"

يضغط بإصبعه على جرس المكتب.

"عندنا هنا مطعم ممتاز.. دجاج، كباب، تكة، تمن ومرق وأشكال أخرى. فماذا يعجبكما تأكلان؟"

لا تستطيع فاتن أن تفتح فمها. تهز يدها و رأسها دلالة الرفض، عيناها مذهولتان. وأعتذر أنا أيضا. فيشرح لنا بأن على الأنسان أن يأكل برغم كل شيء، من أجل أن يعيش، ولا أعترض على وجهة نظره. "طبعا طبعا أستاذ، ولكن لا شهية عندنا للأكل الآن. سوف نقف في الممر و ننتظر، و بعد ذلك اذا تكرمت و سمحت لنا أنا و فاتن نلقي نظرة على وجوه المجهولين."

يستند بظهره الى ظهر الكرسي و يتنهد. يبدو محرجا. ينهض من مكانه و يتناول قنينة المعطر من فوق المكتب و يرفع يده بها، يرش الرذاذ في هواء الغرفة، موجها فتحة القنينة صوب الزوايا و صوب السقف والأرض، و يرش مقدارا من المعطر على ثيابه. و يمتلىء فضاء الغرفة برائحة غريبة هي مزيج من العفونة و أريج زهور و دخان سيجائر. وينفتح الباب و يدخل الفتى الذى دخل عليهما الغرفة ليرد على التلفون قبل اكثر من ساعة. إلا أنه لا ينظر صوبهما هذه المرة، بل يتوجه بانتباهه الكامل الى المساعد، الذى يلتفت اليهما.

" اذن فانتما لا تريدان أن تأكلا؟"

" لا، شكرا. سوف ننتظر"

تنهض، و تحمل فاتن حقيبة يدها و تقف هي أيضا.

" لحظة واحدة رجاء. لحظة واحدة. لا تخرجا الآن. اجلسا."

و يلتفت الى الفتى الواقف في انتظار الأوامر.

" شوف. هات لي دجاج و تمن، و لا تنسى السلطة و الفاكهة."

يخرج الفتى و يعود المساعد الى مكانه، وراء المكتب، و قنينة المعطر لا تزال في يده. تراه يخضها كأنه يروز ما تبقى في داخلها.

" ما عندكما فكرة كم قنينة معطر نستهلك، في الأسبوع الواحد، وكمية المطهرات ـ ديتول و ما شابه ـ ومع ذلك..!"

تجلسان صامتتين تنظران اليه يتكلم جالسا وراء المكتب.

" نعود الى موضوعنا."

تنظر اليه في ترقب.

" نعم أستاذ."

" صحيح أنا تأخرت كثيرا عليكما، غير أن انتظاركما الطويل لم يكن بدون فائدة."

تشعر بقلبها يسقط و يشحب وجه فاتن بجوارها. ماذا يعني!؟ يمد المساعد يده متمهلا. يأخذ سيجارته، من على حافة المنفضة.

" أنا قرأت كل الأسماء، في الإرسالية، التي وصلتنا هذا اليوم."

تحدقان الى وجهه بتوجس، "في الحقيقة أنا عادة لا أهتم كثيرا بالأسماء عندما تصل الشحنات أول مرة. أقرأها طبعاً. ضروري. ولكن بشكل سريع من أجل.."

يأخذ أنفاسا أخيرة من سيجارته و يرمي بالعقب في المنفضة.

"الحمولة تصلنا في الغالب مكدسة الواحدة فوق الأخرى، مثل كومة من الأسماك الكبيرة الميتة. ويحدث أحيانا أثناء الشحن والتفريغ، أن تسقط الرقعة الصغيرة التي عليها الأسم والعنوان من احدى الجثث وتلتصق بأخرى! لذلك أقرأ الأسماء لأجد حلا لهذه المعضلة."

يرنو الى وجه فاتن، تصغي اليه بانتباه.

" انما لخاطرك أنت.. قصدي لخاطركما (ويشملني بنظرته) قرأت كل الأسماء هذا اليوم بدقة، مئات الأسماء، تمعنت فيها واحدا واحدا."

"وهل عثرت ..!؟"

ولا تقوى فاتن على اكمال سؤالها. يحدق الى وجهها باهتمام.

"في الحقيقة لا. لم يكن بينهم."

تشعران بارتياح. تلتفت فاتن وتنظراليها. أقول له:

"بقي أن نتفحص تلك التي بلا اسم و لا عنوان!"

فاتن تخاف مثل هذه المواجهة المباشرة مع الموتى، في حين تود هي

لو أتاح لهما المساعد فرصة النظر الى وجوه المجهولين هذا اليوم، فهي تريد أن تنفي احتمال كون سعيد ميتا بالبحث عنه بين القتلى، إذ إن غيابه سوف يعزز احساسها الداخلي الغامض بأنه لا يزال حيا!

"هل نستطيع أن نراها ؟"

" أنا كلمت المدير. قلت له واحدة من قريباتي تبحث عن.."

" وماذا قال؟"

" وافق طبعا."

" اذن بعد أن تنتهي من طعامك، ان لم يكن لديك مانع.."

يقاطعها متحاشيا النظر الى وجهها.

" لا، ليس اليوم. أنا بودي، ولكن ليس اليوم."

و يرين صمت. يظل جهاز التبريد يرسل طنينه المتصل في سكون الغرفة و الهواء يحمل من الخارج خليطا من اللغط و الهمهمة و صوت نقر على آلات طابعة في مكان قريب. وتنظرالى فاتن في خيبة. أفبعد كل هذا الأنتظار تعودان الى البيت بدون أن .." يقول لها:

"المسألة ليست سهلة. نحن نحتاج الى رجال يحملون لنا الصناديق من العنابر، و بعد ذلك يعيدونها الى أماكنها، و الكل مرهق الآن، فبعد انفجار تلك الجثة تعب العاملون في الساحة، فأعطيناهم بقية اليوم اجازة يستريحون فيها."

تحمل فاتن حقيبتها، و تنهض واقفة. تبقى هي جالسة في مكانها على الديوان تنظر اليه،

يداخلها شعور بانهما خدعتا بشكل ما. تنهض أخيرا، و يغادر المساعد الشاب مكتبه و يقبل نحوهما. يمد يده و يصافحها هي أولا، ثم يمسك بيد فاتن و يحتفظ بها في باطن كفه.

" اكرر أسفي. موعدنا غداً ان شاء الله، و أنا ممنون. اسلكا الطريق نفسه. و اذا اعترضكما أحد تعرفان ماذا تقولان."

تنتزع فاتن يدها من حصار قبضته، و تغادران الغرفة الى الهواء الحار برغم الظلال الكثيفة في الممر. تمشيان صامتتين أمام الغرف المزدحمة بالكتبة المنشغلين بإعداد قوائم الموتى. ثم تغادران الممر الى الأرض المفتوحة. بعد ذلك تدخلان بين ورشتي النجارة والخياطة. وأخيرا تقتربان من الحارس الذي وقف ضجرا على جانب من المدخل الضيق، رشاشته القصيرة في يده، فوهتها نحو الأرض،العرق يلمع على وجهه ورقبته. تمشيان من أمامه، هي أولا، تتبعها فاتن. تقفان بعد ذلك على حافة الطريق العام تنتظران سيارة أجرة تنقلهما الى البيت. تتكلم أخيرا، عيناها على الطريق، يدها تؤشر لسيارات الأجرة المقبلة من بعيد.

"أنا ما مرتاحة لهذا الرجل! لا أظنه يساعدنا بدافع الشهامة، أوهكذا لوجه الله!"

فاتن المهزوزة الأعصاب تمشي صامتة.

١٦

الباب مغلق و المروحة السقفية في الداخل تدور و تصرصر. يكاد لا يسمع ما يقولان نائمين جنبا الى جنب على السرير. الهواء حار و لايدري لماذا لا يفتحان الباب قليلا حتى يرى بعينيه ما يفعله الرجل الغريب الذى يحبس أمه في الداخل و يقفل عليها الباب. الرجل ينام معها الآن على الفراش، يريد أن يسلبها عذريتها، والمروحة لا تتوقف عن الصرير الملعون و صريرها يتدخل في الحديث. أذنه على خشب الباب الموصد. صوت أمه ساهرة يرتفع الآن واضحا، حادا بعض الشيء ماجد من فضلك .. و المروحة تأكل الكلمات ثم ينبثق الصوت من تحت الصرير برهة وجيزة. هذا الطبيب وبعد ذلك غمغمة غير واضحة فالغريب لا يرفع صوته ينام على الجانب البعيد من السرير أو ربما يعرف أنني أتسمع وراء الباب لا هو لايعرف فأنا الآن نائم في غرفتي بعد أن أخذت قرص الدواء جاءتني به ساهرة صوتها الممزق يتكلم مرة أخرى أي علاج ومحاوراته الليلية مع.. وولعه المجنون بإشعال الحرائق كل ليلة كل ليلة يتحدثان عني في السرير ومنذ جاء الحر والمروحة الملعونة تشاركهما الكلام هل أفتح باب الغرفة صوت أمه المتردد يسأل والغريب والمروحة يصغيان هل أفتح يصيح من مكانه دون صوت إفتحيه افتحيه افتحيه

افتحيه و دعيني أرى ما يفعله هذا الدخيل في فراشك و صوت الرجل يغمغم متسترا خلف صرير المروحة و هذا الآن صوت أمه يخرج اليه عاريا لجزء من الثانية نحن لا نفعل ثم يتوارى و تنتبه حواسه المتربصة تصطاد الكلمات الهائمة في سماء الغرفة الموصدة ولكن لا شيء بعد ذلك غير هذيان المروحة المتأرجحة فوق الفراش و هذا الصمت عن الكلام الذى اختفيا في داخله يحطم أعصابه إذ من يدرى ما تقوله عيناه الماكرتان على الوسادة لعينيها البريئتين على الوسادة الثانية من يدرى ما تفعله يداه ما تفعله ساقاه ما يفعله جسده من يدرى إلا أن صوت ساهرة يأتيه أخيرا ماذا تريد تبدو فزعة أمه تبدو فزعة فيهم باقتحام الغرفة عليهما إلا أنه يمسك نفسه و ينتظر سيدخل إذا صرخت يدخل إذا صرخت و يتسمع متوترا متحفزا لحظة طويلة طويلة ولا صرخة السرير ساكن فهل يدخل الآن أو ينتظر يدخل أو ينتظر وفي باطن احدى قدميه الحافيتين حكة تضايقة يرفع قدمه عن الأرض و يحكها بظهر قدمه الأخرى أذنه على الباب و قدماه متوفزتان تريدان أن تدخلا الغرفة قبله إلا أنه يمنعهما من الدخول فأمه ساهرة سوف تغضب عليه لو سمح لقدميه باقتحام غرفتهما هكذا دون استئذان وبدون سبب وهي تنام على الفراش بجوار ذلك الرجل الذى التقطته من الشارع ينامان معا في العتمة و صوت أمه يعلو ضجرا دعنا من المبردة الآن لا بد أن الرجل قال كلاما قبل ذلك بصوته الخفيض فأكلته المروحة يرفع أذنه عن خشب الباب و يحدق في ظلمة الصالة حائرا فما علاقة المبردة بالسرير يسارع بإعادة أذنه الى موضعها طبيب آخر نعم الموضوع القديم نفسه فأمه لا تفكر الآن بأي شيء آخر مهما حاول معها الغريب يشعر بالارتياح فاذا

كان مرضه يجعلها تحافظ على بكارتها فسوف يبقى مريضا الى الأبد وترتفع سبابته في الكف المستريح على الباب يوشك أن ينقر بطرف أصبعه على الخشب مسرورا الا أن أصبعه يتوقف في الهواء ولا يلامس الخشب خوفا من أن ينتبها اليه ويضحك جذلا بدون صوت لا مانع لديه من زيارة أطباء الدنيا و الاصغاء لما يقولون بشرط قلت لك انه ليس يتوقف عن الضحك و يصغي ليس هذا فقط طريقته الغريبة و كل شيء حوله صوت أمه ملول و يائس وهو مبتهج لأنها ليست مستعدة تسمح للرجل الدخيل باختراقها صحيح تذهب صوتها المتلهف يسأل صحيح تذهب الى أين يذهب الى أين ولكن لا صوت آخر غير ذلك الصرير المتقطع للمروحة المعلقة لعلهما خلدا الى النوم وهو أيضا حان موعد وقوفه في الطابور كي يتبول قبل أن ينام يبعد يده وأذنه عن خشب الباب الصامت و يتوجه صوب مجمع المراحيض الطابور طويل هذا اليوم والرؤوس التي غمرها الرماد تتهامس تحت عيون الحرس يأخذ مكانه في نهاية الطابور.

" لماذا كل هذا الزحام اليوم !؟ "

" تصور، تركوا لنا مرحاضا واحدا وأغلقوا الباقي!"

" وماذا فعلتم !؟ "

" أرسلنا وفدا يفاوضهم"

" والجواب !؟ "

" قالوا إنكم لا تنظفون جيدا الأماكن التي تلوثونها بقذاراتكم"

يسمع همسا وراء ظهره إذ إن ذيلا نبت للطابور خلال اللحظات القصار التي انشغل هو فيها بالكلام مع زميله فالأسرى يفدون من كل

صوب وهم لا يريدون أن يتأخروا عن الموعد المحدد لافراغ المثانة والأمعاء يدنو منه أحدهم يداه تضغطان على بطنه لمحه قبل ذلك يتكلم مع الواقفين في بداية الطابور وكانوا يصدونه و هو يتنقل من واحد الى آخر يتلوى يداه تمسكان بطنه حتى وصل اليه.

" أخي هل تبيعني مكانك في الطابور؟ أنا ما أقدر أصبر ما أقدر."

" و ماذا تعطيني؟ "

" حصتي من الخبز ليوم غد."

" لا. انا أريد علبة ثقاب."

" لا أملك علبة ثقاب ."

يبتعد عنه الرجل ليساوم الأسير المنتظر وراءه على مكانه في الطابور، إلا أن واحدا من الحراس يلحظه أخيرا و يتهدده بعصاه فيحمل الرجل مصارينه الهائجة و ينسحب ليأخذ مكانه في نهاية الصف.

يسأل الأسير الواقف أمامه.

"وماذا نفعل اذا أغلقت ادارة القفص هذا المرحاض أيضا !؟"

"علينا عندئذ أن نغلق ثقوبنا."

يرفع صوته فوق الرؤوس المنتظرة، متجاهلا وجود الحرس.

"يا اخوتي! هل مع أحدكم علبة ثقاب؟ أريد أن أشعل حريقا كبيرا!"

١٧

لابد أنها تحلم، نعم تحلم، تتأرجح على تخوم الوعي، أجفانها مطبقة، كأنها مخدرة، فأين هي الآن !؟ في أي مكان !؟ في فراشها في البيت ربما . لا، ليس هذا فراشها. فراشها أرحب و أكثر ليونة. المكان الذى تنام فيه ضيق، وثمة ما يشبه الجدار يحاصرها من جانب، ومن الجانب الآخرهوة تسقط فيها ذراعها، تلامس شيئا صلبا يضغط على لحمها، يدها تستقر بعد ذلك على سطح خشن فيه شعيرات صغيرة تحس بوخزها الخفيف في ظاهر كفها. يداخلها إحساس بان ثمة عينين تحدقان اليها بتركيز من مكان قريب. تشعر بوطأة النظرات المحدقة فتفتح جفنيها لتنظر مباشرة الى منبع ذلك التيار المتواصل الذي أزعج نومها الضبابي. تفاجأ بعيني المساعد منصور غانم المحملقتين باندهاش صامت الى وجهها والى جسدها المتمدد باسترخاء غير مكترث على الديوان في غرفته. تنتفض جالسة، و تغطي بأطراف ثوبها المنحسر ركبتيها المكشوفتين، و تسوي بحركات سريعة من يديها المضطربتين، شعرها المبعثر، و ترفع شالها الأسود المتهدل بإهمال على كتفيها، تستر به شعرها من جديد، عيناها ترمقانه في مزيج من الفزع والاستغراب.

" لماذا أنا هنا!؟"

يتأملها من مكانه وراء المكتب، ثم ينهض من على كرسيه و يجيء اليها. تنكمش على نفسها في طرف الديوان، في الجهة القريبة من الباب، و ترنو اليه متوجسة.

"ماذا حدث !؟ ولماذا أنا هنا وحدي!؟ "

يبتسم و يتوقف أمامها.

"أغمى عليك هناك .. عندما وقعت عيناك على وجه الميت!"

تتذكر. تغمض عينيها، ثم تفتحهما.

"وكيف جئت .. كيف وصلت الى ..!؟ "

من الذى جاء بها من العنابر!؟

"أنا حملتك."

يحمر وجهها، و تمتد يداها تمطان أطراف الثوب تغطيان ساقيها المضمومتين الأن.

ترفع رأسها اليه فيما يشبه الذعر.

"أنت بنفسك .. حملتني!؟"

"على هاتين الذراعين!"

يا للفضيحة!

"حملتك هكذا!"

يمد ذراعيه الى الأمام و يجعل ساعديه تلتفان حول جسد وهمي بديلا عن جسدها المنكمش الآن على الديوان، وجسدها المتهافت الذي لا يشعر بما يجري يتأرجح على جسده، لحمها يحتك من وراء قماش الثوب الخفيف بصدره وبطنه وبفخذيه. تتخيل كل هذا مضطربة.

"لا تخافي! لن أخبر أخت زوجك."

تود لو يكف عن الكلام عما حدث.

"أرجوك، لا تتكلم مرة أخرى عن ..!"

"اطمئني. سرك في بير."

ويبتسم لها ابتسامة متواطئة لا ترتاح اليها، وهو يطوقها بنظراته الجذلة. و حين يلحظ شدة ارتباكها يعود ويجلس وراء مكتبه. تنهض واقفة، حقيبتها اليدوية الكبيرة السوداء موضوعة على سطح مكتبه بجوار جهاز التلفون. ترتطم ساقها بحافة الطاولة الخشبية الواطئة أمام الديوان وهي تمشي نحو حقيبتها. تترنح قليلا. تستند بيديها الى حافة المكتب لتستعيد توازنها. ثم تمد يدها اليمنى نحو الحقيبة.

" يجب أن أعود الى ساهرة. لا ينبغي أن .."

لا يبدي المساعد اعتراضا على قرارها الذهاب الى هناك مرة أخرى. إلا أنه يسألها:

"وهل تقوين على رؤيتهم !؟ "

تقف مترددة، حقيبتها بين يديها. تطرق برأسها، فيأتيها صوته.

"أنت شفت وجها واحدا فقط وغبت عن الدنيا! ماذا يحصل إذا..!؟"

لماذا يصر على تذكيرها !؟ ماذا تفعل الآن !؟ الى أين تذهب !؟ ليس من اللائق أن تترك ساهرة وحدها في هذا المكان و تهرب عائدة الى البيت.

"اجلسي. أنت لا تزالين مضطربة، وسوف يغمى عليك مرة ثانية."

تعود الى الجلوس في مكانها. تضع حقيبتها في حضنها وتجلس مستسلمة، تلحظ ومضة انتصار في عينيه. يوقد سيجارتين ثم ينهض من مكانه وراء المكتب ويأتي بواحدة اليها.

"أنت تعرف، أنا لا أدخن."

"لا تخافي. أخت زوجك مشغولة هناك الآن. و التدخين يهدىء الأعصاب، صدقيني. خذي."

تمد يدا مترددة و تأخذ السيجارة من يده الممدودة صوبها. تمسكها بين أصابعها كأنها تمسك قلما. لكنها لا تضعها بين شفتيها. السيجارة في يدها الآن و بدها تستريح على جلد حقيبتها، في حين تنطرح كفها الأخرى مفتوحة الأصابع على قماش الديوان بجوار فخذها، عيناها تحدقان الى الأرض في شرود. يتراجع الى الوراء و يستند بظهره الى حافة المكتب، وجهه اليها.

"لو كنت أعرف أنك رقيقة الأحساس الى هذا الحد ما سمحت لك بأن تعرضي نفسك لهذه التجربة."

ما كانت تتصور، أبدا ما كانت تتصور أن ما شاهدته ممكن الحدوث!

"أخت زوجك تختلف عنك كثيرا، ليس فيها ذرة واحدة من الأنوثة. كأنها رجل!"

لا تنظر اليه، إلا أنها تعترف.

"نعم. هي أصلب مني."

وترنو بعينين ساهمتين الى الجذوة الصغيرة المغلفة بالرماد في رأس سيجارتها التي راحت تحرق نفسها ببطء، دخانها الأزرق الخفيف يتبدد في الهواء البارد المنبعث من جهاز التكييف في الجدار. تشعر بعيني المساعد على وجهها. وقف يدخن و يحدق الى وجهها.

"لماذا تخافين منها !؟"

يقاطعه رنين التلفون المباغت فيغادر مكانه منزعجا، يذهب وراء المكتب ويسحب سلك التلفون من مكان الاتصال في الجدار.

"هكذا أحسن. هذه النداءات أكثرها تسأل عن .. "

يأتي هذه المرة فيجلس بجوارها على الديوان. تنسحب مبتعدة عنه بجسدها. تترك بينه و بينها فسحة تكفي لجلوس شخص ثالث. يبتسم.

"لماذا كل هذا الخوف من أخت زوجك!؟"

ترفع يدها بحركة متمردة، وتضع طرف السيجارة بين شفتيها، تأخذ نفسا قصيرا فيخنقها الدخان. تسعل وتمد يدها بعيدا عن وجهها لا تدري ماذا تفعل بالسيجارة ، فيأخذها من بين أصابعها و يمد ذراعه ليدفن طرف السيجارة المشتعل في الرمل الذى يملأ خرطوشة المدفع عند حافة الديوان، ويضحك متسليا. تهدأ نوبة سعالها فتضحك هي أيضا، تضحك مرتبكة تداري شعورها بالخجل أمامه.

"قلت لك أنا لا أدخن."

"أنا آسف . ظننتك تمتنعين عن التدخين بسبب الخوف من الآنسة ساهرة."

"ومن قال لك أنني أخاف منها !؟ أنا أحترمها فقط، فهي أكبر مني، واكثر خبرة."

يعاودها السعال، إذ إن بعض الدخان لا يزال محشورا في مكان ما من رئتيها. تهدأ بعد حين.

"هي، مثلما قلت أنت، تتصرف أحيانا كأنها رجل. وأنا أعتمد عليها. ليس دائما طبعا."

"مفهوم."

تضايقها ابتسامته الهازئة.

"هي أخت زوجي على أية حال، بمثابة أمه. في الحقيقة هي التي ربته."

"كانت أخت المرحوم زوجك. أما الآن ..!"

تنظر اليه منزعجة.

"كيف تقول هذا ونحن لم نعثر بعد على ..!؟"

"سوف نعثرعليها!"

تتأمله حائرة. لماذا يحاول هذا الرجل أن يبعث اليأس الى نفسها!؟ تلمح ابتسامة مبهمة ترف على شفتيه، وهو يطيل النظر اليها و يدخن مسترخيا على الديوان قريبا منها، مادا ساقيه أمامه، جلد حذائه الأسود يلمع تحت الضوء.

"ولكن أنت بنفسك قلت ان الاحتمالات .."

"قلت ربما تأخرت قليلا. ولكن من يدري. قد نعثرعليها بين مجهولي الهوية، أو مع واحدة من هذه الشحنات، التي تصلنا كل يوم."

يطفىء سيجارته في الرمل، و ينهض.

"سأطلب لك عصير ليمون يهدىء من روعك."

يضغط على الجرس فوق مكتبه ثم يعود ليجلس بجوارها على الديوان. لماذا لا يذهب ويجلس في مكانه وراء المكتب !؟

"أنا لن أدعك تنتظرين طويلا هكذا! حرام!"

ولكن ماذا يعني بهذا الكلام!؟ تظل صامته، مستريبة، حقيبتها تنام في حضنها وراحتاها تستريحان الآن متجاورتين، ساكنتين، على جلد الحقيبة البارد.

" أنت لا تقدرين أن تعيشي مع هذه المرأة، بعد رحيل زوجك."

تتحاشى النظر الى وجهه. كلماته المحيرة تفتح في دواخلها أبوابا سرية ما كانت تجرؤ على فتحها بنفسها من قبل.

" سوف تجعل حياتك صعبة بسلوكها المتزمت."

تتحرك يداها، تحملان الحقيبة و توقفانها على قاعدتها العريضة فوق منتصف فخذيها.

تستقر اليدان بعد ذلك فوق الحافة العليا للحقيبة، كفا فوق كف، كأنها تتهيأ للخروج. يتجاهل حركتها هذه.

"أكيد هي لا تسمح لك بالذهاب الى السوق وحدك!"

تحدق الى النافذة، الى فراغ السقف، الى الجدران، بعد ذلك تعود بعينيها اليه.

"هل بقيت نائمة .. قصدى مغمى عليّ مدة طويلة !؟"

"لا.. دقائق فقط."

هل يحاول أن يخفف عنها.

يبتسم.

"وان كنت أتمنى لو بقيت تنامين مدة أطول، شعرك الأسود محلول يتناثر حول وجهك، وذراعك تتدلى بين الديوان والطاولة، و.."

يسمع طرقا على الباب فيسارع بالنهوض عن الديوان و يبتعد عنها. يقف بجوارمكتبه، ويرنو الى باب الغرفة المغلق.

يدخل أحد الأفراد، و يضرب الأرض بجزمته الثقيلة.

"واحد عصير ليمون و واحد شاي بالعجل."

حين تخلو لهما الغرفة مرة أخرى لا يعود الى الديوان إنما يذهب ويجلس على كرسيه وراء المكتب.

"هل ستتأخر ساهرة هناك كثيرا !؟"

"نعم، تتأخر.. اذا ارادت أن تراها كلها."

"كان يجب أن أبقى معها، لكنني ..!"

"هل أنت متضايقة من وجودك معي في الغرفة .. وحدنا !؟"

"لا، إنما .."

تتلفت حائرة .

"أنت كم عمرك الآن؟"

تطرق بعينيها.

"آسف لإلقاء مثل هذا السؤال الشخصي. أنا أردت فقط .."

ترفع عينيها الى وجهه و تعترف بصوت خفيض.

"عمري ست و عشرون سنة تقريبا."

"يعني أنت لاتزالين في بداية حياتك، شابة لم تستمتع بالدنيا بعد، وأخت زوجك هذه ..!"

تظل صامتة، وهو يكلمها بألفة، لا يبررها تعارفهما الرسمي القصير.

"إن ما تحتاجينه، في رأيي ورأي كل انسان عاقل، هو رجل يعرف كيف يرعاك ويحميك. لا يجوز أن .."

تنظر الى ساعتها. العقارب تشير الى اقتراب الظهيرة، غير أن الزمن في هذه الغرفة راح يجر نفسه متثاقلا، وهي محاصرة بكلمات المساعد ونظراته الموغلة. تحافظ على صمتها، نظراتها التائهة تنتقل على الجدران وقطع الأثاث والورود التي ذوت و تهدلت سيقانها الواقفة في اعياء منذيومين داخل الماء الكدرفي المزهرية على مكتبه.

"من الضروري أن يكون بجوارك رجل مقتدر.. رجل تستطيعين أن تعتمدي عليه."

يطرق الباب و يدخل عليهما الفتى. وحال انصرافه وانغلاق الباب يحمل المساعد شايه ويأتي ليجلس بجوارها مرة أخرى. يضع(استكانة) شايه بالقرب من كأس عصيرها على الطاولة الصغيرة أمام الديوان، و يدنو منها بجسده كي يتقاسما الطاولة، فيزيد من اضطرابها هذا القرب الشديد من جسده المتحفز. ماذا لو دخلت عليهما ساهرة الآن!؟ ماذا لو دخلت !؟ قال انها سوف تتأخر، مع ذلك من يدري، قد تفاجئها بدخول غير متوقع.

"تخلصي من هذه الحقيبة، وخذى راحتك."

يمد يده ليأخذ الحقيبة من حضنها، غير أنها لا تدعه يلمسها. تحشر الحقيبة بين فخذها ومتكأ الديوان.

"والآن اشربي عصيرك."

ترفع كأسها و تشرب. ينتهز فرصة انشغالها بشرب العصير فيضع كفه الكبيرة على يدها الساكنة بجوارها على قماش الديوان. تشرق بالسائل و تعيد الكأس الى مكانه على الطاولة بيد مترنحة و صوتها يردد في فزع.

"لا أستاذ منصور! لا، دخيلك ! يدخل علينا أحد! لا، أرجوك!"

تحاول تخليص يدها الصغيرة المباغتة من شرك أصابعه المتشبثة، المسيطرة.

"اترك يدي أقول لك ! آخ.. أنت توجعني! أتركها!"

يفلت يدها أخيرا.

"أنت تتصرفين بشكل غريب. ولا كأنك إمرأة من هذا الزمن! لماذا تخافين كل هذا الخوف!؟"

"سأذهب .. انتظر ساهرة هناك.. خارج العنابر.."

"اجلسي. لن ألمسك مرة أخرى."

يحمل شايه و يذهب ليجلس وراء مكتبه. ينفتح الباب بغتة، دون استئذان. (كم هي محظوظة! لو أن الباب انفتح قبل لحظة واحدة فقط!) يطل وجه شاب في عمر المساعد تقريبا و من نفس الرتبة، و يتكلم في عجلة.

" منصور، هل تلفونك..!؟"

يقع نظره عليها في وقفتها المضطربة و الدم ينبض تحت بشرتها المتوردة، فيتوقف عن الكلام مبهوتا.

"هذه قريبتي، السيدة فاتن، أرملة الشهيد سعيد محمد المطلوب. جاءت تبحث .."

" أهلا وسهلا. البقاء في حياتك!"

تلحظ رفيف ابتسامة على الوجه المباغت.

"فاتن استريحي. لماذا تقفين هكذا !؟ "

يكلمها المساعد بألفة زائدة عن الحد أمام زميله.

"قلت لك أنا بنفسي سوف أبحث. واذا لزم الأمر أذهب الى .."

تضطر الى الجلوس محاصرة، تتشبث بحقيبتها اليدوية. والشاب الآخر لا يزال على وقفته في اطار الباب المفتوح يتأمل المشهد بعينين باسمتين، و تيار من الهواء الحار يقتحم برودة الغرفة مارا من حوله و من بين ساقيه المنفرجتين. يرفع أخيرا نظراته عن وجهها الذى ازداد احمرارا و يتوجه الى منصور غانم.

"أبو الهادي قلب الدنيا عليك. يقول أين اختفى !؟ و ماذا أصاب تلفونه !؟ اذهب اليه بسرعة. هو لا يزال هناك، في منطقة العنابر."

ينظر اليها مرة أخرى و يبتسم.

"تشرفنا. أنا أيضا برسم الخدمة سيدة فاتن."

يرنو الى المساعد الذى يتشاغل بالبحث عن شيء في درج مكتبه، مطرقا برأسه. ثم يختفي الوجه والهيكل من فرجة الباب الذى ينغلق بهدوء، فيرفع منصور، عندئذ، رأسه وينظر اليها.

" مع كل الأسف، عليّ أن أذهب الآن. أنت تعرفين. لابد من إطاعة الأوامر!"

يشرب بقية شايه بسرعة وينهض.

" أرجوك لا تغادري الغرفة. لن أتأخر."

يشد حزامه، ويتناول (البيرية) من فوق المشجب، يضعها على رأسه، و يحمل علبة سيجائره وعلبة ثقابه يدسهما في جيبه، و يتركها بعد ذلك حبيسة غرفته. تنهض من مكانها متحررة من ضغط ذلك الحصار المريك الذى فرضه عليها بوجوده معها في الغرفة وحدهما. تخطو ساهمة من جدارالى جدار. تسمع الدوي البعيد لحركة السيارات والشاحنات على الطريق العام، تسمع الهمهمة واللغط المبهم وأصوات النقرعلى آلات الطابعة في الغرف المجاورة. تسمع وقع خطى في الممر، وتسمع أيضا أصداء جزعها و حيرتها و مخاوفها التي أثارها هذا المساعد بكلماته الملغومة و سلوكه المتهور. متى تجيء ساهرة كي يعودا الى البيت!؟ تمضي صوب النافذة وراء المكتب. تتحاشى الاستناد هذه المرة بظهرها الى ظهرالكرسي الذى يخصه. تلتصق بالنافذة وتمد بصرها

عبرالفراغ المضاء بالشمس - من فوق تلال الخشب المتناثرة على الأرض - الى تلك الساحة الواسعة، بسطحها المرتفع المحدب، والمرقطة في الداخل بأضواء مصابيح النيون المشعة، المثبتة في السقف وعلى الجدران. أطالت النظر الى المكان الذى تفد اليه الشاحنات بحمولتها الهامدة. الساحة تبدو خالية الآن، وأشعة الشمس المنحدرة نحو الغروب تلون سقفها الشاسع. ثمة شخص يدب هناك على الأرض المقفرة، يدب بخطوات متثاقلة. وهذا واحد آخر يدخل من الباب الواسع الذى تمرعبره الشاحنات ويتبع صاحبه متمهلا. يبدوان صغيرين من بعيد وهما يمشيان وحدهما في ذلك الفناء الفسيح. لاحركة متعجلة هذا النهار. لا رجال يتراكضون ولا أحد يكنس الأرض مما يتساقط عليها ولا دلاء ماء لغسل الدماء والأوحال. الغرفة التي تجري فيها محاولات التعرف على أولئك الذين وصلوا بلا إسم ولا عنوان تقع على يمين هذه الساحة الكبيرة، بين الساحة والعنابر. "ضعي هذا على وجهك، فالرائحة هنا لا تحتمل." أعطاها المساعد قناعا طبيا أبيض.(لم يكن يرتدى قناعا هو نفسه) "وانزعي هذا الشال عن رأسك أحسن." تنظر اليه مترددة ثم تسقط شالها عن شعرها، تتركه يتهدل حول رقبتها، طرفاه يتدليان على جانبي صدرها وذوائبه تلامس وركيها. "والآن دعيني أساعدك."

ساهرة ربطت قناعها بنفسها دون معونة من أحد. رأتها تحدجها بنظرة مؤنبة من عينيها الكبيرتين القاسيتين، فوق حافة القناع الأبيض، ثم تستدير بعصبية وتدخل الى غرفة التشخيص قبلها، في حين وقف المساعد في هذه الأثناء وراء ظهرها تماما يهيمن عليها بجسده الطويل الذي يكاد يلامس جسدها من الخلف، يداه منشغلتان تربطان لها القناع،

وهي مرتبكة بحضوره القريب جدا منها، تحس بحركة يديه غير المتعجلتين تدخلان وتخرجان بين طيات شعرها الغزير، أصابعه ترتطم بين وقت وآخر بعنقها ومؤخرة رأسها، تلامس لحمها المستفز. وأخيرا ينتهي من ربط القناع لها." والآن تفضلي. أدخلي أمامي." تدخل الغرفة بخطوات غافلة، تدخل مضطربة، تخاف أن تفاجأ بوجه زوجها سعيد يطل عليها من داخل أحد الصناديق، متصلبا، مستسلما، مشوها ربما. إلا أنها برغم كل اضطرابها وخوفها دخلت غافلة عما كان ينتظرها حقا. وجدت نفسها في غرفة مربعة رحبة، مضاءة بعدد من مصابيح النيون المثبتة في أعالي الجدران، لها نافذة عريضة واحدة تطل على الأرض المكشوفة التي تتكوم شرائح الأخشاب في جانب كبير منها، وباب آخر، باب أوسع، في منتصف جدارها القصي، عرفت بعد ذلك أنه يؤدي الى العنابر ,مدير المركز الذي كان موجودا في غرفة التشخيص نظر اليها بعطف حين دخلت، رجل في نحو الخمسين مرهق العينين، يخالط الشيب شعره الأسود. المساعد قال له انهما قريباته ولاتدرى ان كان المدير صدق زعم المساعد أم لا، غير أنه عاملهما بلطف بالغ. وقفت بجوار ساهرة، و ساهرة وقفت ساكنة تنظرأمامها في شرود. وقفتا تنتظران تدهمهما تلك الرائحة الرهيبة مثل بخار كثيف يصعد من اغوار مستنقع مشؤوم لم تكن تعرف له وجودا على سطح هذه الأرض. سمعت دربكة خطى رجال يحملون شيئا ثقيلا، وظهر صندوق خشبي جديد، بلا غطاء جاء به أربعة أفراد و وضعوه في وسط الغرفة ثم وقفوا على جانب. ظل المساعد يقف بجوارها. خطت ساهرة الى الأمام نحو الصندوق دون تردد في حين بقيت هي تقف مشلولة تخاف الاقتراب من ذلك الصندوق المكشوف. راحت

تختلس النظر في رهبة الى الجثة الممددة في داخله، والتي يلفها غطاء من النايلون الأبيض السميك يخفي الجسد كله باستثناء الرأس الذى بقي عاريا. ولكن مستحيل فليس هذا وجها بشريا ! وساهرة ـ هذه الأمرأة العجيبة ـ

تنحني فوقه بلا وجل. تلقي هي نظرة خاطفة أخرى من مكانها بالقرب من الجدار. يحيرها مشهد العينين، فما هذا الذى يملأ المحجرين ويغطي المقلتين مثل لطختين كثيفتين من

(البوية) البيضاء !؟ سمعت مدير المركز يقول آمرا.

" امسحوا الدود عن عينيه ! "

هرع أحد الأفراد الى الخارج، و اعتدلت ساهرة.

" لا، ليس هو."

التفت اليها المدير.

" تمعني فيه جيدا، فالملامح تتغير. لا تتوقعي .."

" لا، ليس هو."

" اذا أحببتما نكشف لكما عن الجسد. لابد أن هناك علامة، شامة مثلا، أو ندبة تعرفها زوجته."

ونظراليها المديرفي وقفتها المشلولة بالقرب من الجدار. لم تفتح فمها. تراجعت واستندت بظهرها إلى الحائط . ماعادت تستطيع الوقوف منتصبة دون سند. أية رائحة هذه التي تنبعث من الصندوق !؟ لمحت المساعد يحدق في وجهها.

" أتشعرين بدوار !؟ "

سألها بصوت خفيض.

" لا."

همست من وراء القناع.

" الشحوب واضح على جبينك !"

ظلك صامتة، تشعر بضغط القناع على أنفها وعلى وجنتيها وتحس بالاختناق. وتكلم المدير. "طيب. هاتوا واحدا آخر. اتركو هذا هنا الآن. نظفوا عينيه."

دفع الأفراد الثلاثة الذين ظلوا يقفون في الغرفة الصندوق الى جانب. سمعت صوت احتكاك الخشب على الأرضية الأسمنتية العارية. لمحت الرأس يهنز قليلا داخل الصندوق، ربما توهمت ذلك. ترك الرجال الصندوق قريبا من النافذة في الجدار المقابل حيث سقط عليها ضوء النهار بالإضافة الى أضواء مصابيح النيون التي كانت تملأ الغرفة بنورها الساطع، وذهبوا بعد ذلك الى العنابر كي يجلبوا صندوقا اخر. دخل الرجل الرابع يحمل في إحدى يديه دلوا من(البلاستيك) يمتلىء حد النصف بسائل تفوح منه رائحة (ديتول)، وفي يده الأخرى لفافة قطن. وضع الرجل الدلو على الأرض، وركع على ركبتيه بجوار الصندوق، ثم انحنى بجذعه فوق الوجه الساكن، والمدير يراقب حركاته صامتا، في حين وقف المساعد بجوارها يكاد يلامسها بجسده، نظراته المتفحصة لا تفارق وجهها المقنع الى ما تحت العينين، وساهرة تنظر الى الباب المؤدي الى العنابر، تنتظر عودة الرجال بصندوق اخر، عيناها السوداوان تتقدان فوق بياض القناع، وحقيبتها اليدوية التي بحجم الكف تقريبا ـ والتي تحفظ فيها نقودها وبطاقة سعيد الشخصية ـ تنهصر بين أصابعها. ساهرة لا تتحرك، تقف جامدة مثل صخرة، تنظر الى الباب المؤدي الى العنابر، ولا

تلتفت الى الرجل الراكع بجوار الصندوق. الرجل الراكع بجوار الصندوق ينتزع قطعة من لفافة القطن ويغمسها في الماء ، ثم يرفع يده ويعصر القطنة المنقوعة بين أصابعه فتسمع صوت ارتطام القطرات المتساقطة بسطح الماء في الدلو. يمد الرجل يده بالقطنة المبللة نحو الوجه المستسلم ليمسح طبقة الدود البيضاء ـ النابضة بحركات والتواءات لا تلحظ ـ من على احدى المقلتين وهي تنظر اليه ذاهلة، يقوم بعمله بهدوء و أناة. يمسح الرجل العين الملطخة بالدود بقطنته المبلولة. يمسحها مرة واحدة فيتكدر اللون الأبيض. يغمس القطنة في السائل مرة أخرى ويعصرها ثم يمسح على العين مرة ثانية ومرة ثالثة فلا يتبقى في منخفض العين شيء، لا من الدود ولا من مقلة العين نفسها. ينفتح في الوجه المشوه أمامها ثقب أسود، فتدور بها الدنيا، يهبط عليها السقف وتشيلها الأرض وتترنح من حولها الوجوه والهياكل والجدران والأبواب ثم تخبو في عينيها المصابيح، و تشعر بيد تتشبث بها بقوة لتمنعها من السقوط في الفراغ، وتقودها اليد الى الخارج، وتتناهى اليها من وراء الحجب أصوات غريبة تتساءل مندهشة بكلمات لاتفهم مغزاها، في حين يتصرف جسدها بمعزل عنها وينزلق وحده ليغادرها ويذهب كأن تيارا عارما يجرفه معه ويمضي به لا تدري الى أين. وما عرفت بعد ذلك ماذا حدث لها.

تظل واقفة في مكانها عند النافذة، في غرفة المساعد، تحدق في شرود الى أكداس الخشب في فسحة الأرض أمامها، والى الساحة المسقوفة البعيدة. ساهرة تأخرت كثيرا.

كيف تقوى هذه الإمرأة على مواصلة النظر الى ..!؟ تعود لتجلس على الديوان. يقولون ان التدخين يهدىء الأعصاب، وهي خنقتها نوبة

من السعال، لتجرب مرة ثانية. ولكن المساعد أخذ معه علبة سيجائره. تنظر حولها. منشفته الصغيرة البيضاء تتدلى من المشجب، وورود الأمس تتهدل ذابلة حول حافة المزهرية على المكتب. يحاول أن يغطي على الرائحة المنبعثة من العنابر إلا أنها أقوى من كل عطور الدنيا. ماذا بوسعها أن تفعل !؟ ماذا بوسعها أن تفعل !؟ لماذا لا تكون الأشياء واضحة !؟ لماذا لا تكون حاسمة وسريعة برغم وجعها المضني في الوهلة الأولى !؟ حكاية التحديق في عيون يأكل فيها الدود، وفي ثقوب سود غائرة وسط وجوه مشوهة يابسة، من أجل العثور على ملامح وجه عزيز ضائع، هذه الحكاية سوف تدمرها الى الأبد. وساهرة تنتظر منها أن تتصرف بقلب ثابت لايهتز وهي لا تستطيع لا تستطيع لا تستطيع. تشعر بجفاف حلقها فتتناول كأس العصير وتشرب ما تبقى فيه من سائل بارد دفعة واحدة، ثم تضع القدح في مكانه على الطاولة. تتناول حقيبتها وتنبش فيها، لا تدري عن أي شيء تبحث . تعثر أصابعها على مرآة مستديرة صغيرة.

تخرج المرآة و ترنو الى وجهها. تطالعها عينان كسيرتان و رموش ذابلة، وثمة انتفاخ تحت الأجفان، والوجه مرهق. تعيد المرآة الى داخل الحقيبة بسرعة وتغلق الحقيبة. تظل تجلس على الديوان في سكون يهدهدها طنين جهاز التبريد، واللغط القادم من الخارج، ودوي شاحنات تتحرك في دروب المجمع، وهي تجلس هنا وحدها وجهاز التلفون ساكت في مكانه فوق سطح المكتب. حسنا فعل المساعد حين قطع الاتصال بالآخرين، وإلا فأن رنين الجهاز المتكرر كان سيهد أعصابها المحطمة. ترنو الى ساعتها. الوقت تجاوز منتصف النهار وولداها عند الجيران.

ترى ما الذى يفعلانه الآن، وهل يفتقدانها !؟ يعتقد الكبير أن أباه سوف يعود قريبا، أما الصغير فلايفقه شيئا مما يجرى في هذه الدنيا. أحسن. تتمنى لو أنها ظلت طفلة هي نفسها. تترك حقيبتها اليدوية على الديوان وتذهب الى النافذة مرة اخرى. ولكن ما هذا !؟ تفاجأ بحركة العديد من الرجال في الساحة المسقوفة، وثمة شاحنة يجري الآن افراغها من حمولتها في حين وقفت ثلاث شاحنات أخرى على جانب تنتظر دورها في التفريغ. تظل مصلوبة في مكانها بجوار النافذة تتأمل الرجال المنشغلين هناك، رواح ومجيء وأذرع تلوح وأفراد يتراكضون وكتل صغيرة قاتمة ملقاة على الأرض. تحدق الى ما يجري في الساحة في شرود. ثم تسمع طرقا على الباب وراء ظهرها فتجفل. تلتفت في الوقت الذى ينفتح فيه باب الغرفة. تشاهد وجه ساهرة المكدود. تدخل عليها أخت زوجها أخيرا، في يدها حقيبتها الصغيرة والقناع الطبي الأبيض مضغوطا تحت أصابعها على جانب الحقيبة. تغادر النافذة وتمشي اليها تلقي ساهرة بنفسها على الديوان لتستريح قليلا. تخاف أن تسألها إن كانت قد عثرت عليه. الانطباع البادي على وجهها المتعب لا يشير الى أنها مصدومة باكتشاف مفجع.

"لم يدعوني أرى كل ما عندهم من المجهولين. وصلت وجبة جديدة فتركوني وانصرفوا." تجلس بجوارها على الديوان. تلتفت ساهرة اليها، وتحدق في وجهها متفحصة.

"وكيف تشعرين الآن !؟ "

"أحسن. أنا لم أقدر .."

ساهرة لا تصغي اليها. تنظر الى الكرسي الفارغ وراء المكتب.

"التقيت به هناك. قال انك تنتظرين في غرفته."

في عينيها نظرة مستريبة.

"أنا شعرت.."

تحاول أن توضح، إلا أن ساهرة تواصل الكلام.

"رجوته أن يقرأ لنا أسماء الذين جاؤوا بهم الآن. قال ان ذلك يستغرق وقتا طويلا، وهناك شاحنات أخرى في الطريق."

"أنا شعرت بالأغماء عندما.."

"لنذهب!"

وتنهض ساهرة في الحال، فتحمل هي حقيبتها اليدوية وتتبعها. يلفحهما الهواء الحار خارج جدران الغرفة.

"أنت تأخرت كثيرا. وأنا اضطررت.."

"ماذا أفعل !؟ نحن ما جئنا هنا من أجل التسلية! "

كلماتها خناجر.

"تفحصت اكثر من عشرين، أريد فقط أن أتاكد من أنه ليس .."

تصفعهما الشمس حين يفارقان الظل، بين غرف الإدارة.

"قالوا احتفظي بالقناع مادمت ستأتين غدا."

تشير بيدها.

"وتدخلين الى تلك الغرفة مرة أخرى !؟"

تنظر اليها ساهرة باندهاش.

"طبعا، والا كيف سنعرف."

لا تقول شيئا. تمشيان في صمت متجاورتين، وتحتويهما الظلال من جديد. تسمع ساهرة تغمغم الى جانبها، فتنظر اليها متسائلة. الصخب

المتصاعد من معمل النجارة ومعمل الخياطة يغطي الآن على الكلام، ما لم يرفع الإنسان صوته وهو يتكلم. يخرجان الى الشمس ويبتعدان عن الضجيج.

"كنت أقول لا داعي لمجيئك معي مرة ثانية."

في صوتها الكثير من القسوة. تظنها نسيت سعيد سريعا! كل ما في الأمرأنها لا تستطيع مشاهدة وجوه الموتى.

"لا، سأجيء معك."

وتتابع مسيرتها الصامتة المدحورة بجوار أخت زوجها. تغادران المجمع ورائحته المدوخة بحشود الرجال النائمين داخل صناديقهم الخشبية الجديدة، ينتظرون مجيء الأهل للتعرف عليهم وأخذهم. لا، ليس من الإنصاف أن تترك ساهرة تتردد على هذا المكان وحدها. الا أنها، مهما كانت الأسباب، لن تتورط مرة ثانية بدخول تلك الحجرة الرهيبة أبدا !.

١٨

" في الحقيقة هي أشياء صغيرة تلك التي تجعلني أرتاب في ما يجري بين المساعد منصور و زوجة ابني سعيد. لاشيء محدد إنما ـ كما قلت ـ هي أمور صغيرة. نظرات ساهمة يتبادلانها في صمت مشحون بالعواطف، رقة متناهية في صوته وهو يكلمها، ورخاوة تفيض أنوثة في نبرة صوتها وهي ترد عليه. ثم هذه الابتسامات ..هذه الابتسامات التي تكاد لا تفارق شفتيه حين يتحدث أو يصغي اليها، والتي ترف رفيفا مترددا وخجلا (هذا كان في الأيام الأولى) على شفتيها وهي ترنو اليه. هذه الابتسامات المحيرة والتي تبدو لي في غير محلها في الكثير من الأحيان، متناقضة تناقضا حادا مع موضوع الحديث.

"مرة .. "

يتكلم منصور.

"مرة وجدنا بين احدى الشحنات جثة ينغرز فيها صاروخ صغير لم ينفجر. تصوري !"

ويبتسم لها بعذوبة، عيناه على وجهها المندهش. يا سبحان الله ! هل نسيت، هذه المرأة، زوجها هكذا بسرعة !؟ وأتأمله جالسا باسترخاء في كرسيه المريح وراء مكتبه العريض، مزهوا بنفسه ومعافى تماما ،

سيجارته بين أصابع احدى يديه، في حين تستريح كفه الأخرى على سطح المكتب، بالقرب من جهاز التلفون، مقوسة قليلا مثل ظهر سلحفاة اذ تختفي تحتها علبة ثقاب تلوح جوانب منها بين شقوق الأصابع، وهو يواصل الكلام في متعة غريبة، عما يصادفه أثناء عمله في المركز من أحداث ومشاهد تبدو له طريفة أو مثيرة، فهو يحاول أن يسليها ويحتفظ بها جالسة هكذا أمامه أطول وقت ممكن تستمع اليه بوجهها المفتون. وأراقب التعابير التي تشف عنها النظرات المتبادلة بينهما ويتأكلني الغضب وأشعر بالضيق لعجزي عن الوصول الى الكلمات التي لا ينطقان بها أمامي. أنظر الى ساعتي في نفاد صبر. يلحظ نظراتي الملولة الخالية من الود.

"أخت ساهرة لابد أنك تعبت اليوم كثيرا في غرفة التشخيص!"

"بصراحة تعبت ويجب أن نذهب الآن. يالله فاتن !"

أحمل حقيبتي وأنهض. إلا أنها تظل جالسة، في مكانها، كأن عجيزتها التصقت بالديوان. يرمقني المساعد، في رجاء .

"ابقيا بعض الوقت، ابقيا بعض الوقت. سيأتي الولد بالشاي حالا."

وهي تنظر اليه، تشجعه. أجلس مضطرة. ويتابع سرد حكايته.

"كنت أقول.. نعم ، الصاروخ دخل الجسد، من الخلف، في منطقة البطن تحت الأضلاع مباشرة، وظل محشورا هناك، جزء منه، جزء صغير فقط يبرز من فتحة ممزقة الحوافي، في الظهر، وجزء أكبر من الأمام، إلا أنه لم ينفجر! كل هذه الحركة، على الطريق، ولم ينفجر!"

يبتسم لها مرة ثانية.

"ومات الرجل !؟ "

يضحك.

"اذا كنا استلمنا الجثة!"

ويغمز بعينه. ثم يأخذ نفسا من سيجارته ويرنو اليها بعد ذلك من خلال الدخان. ترفع يدها البيضاء في حركة متراخية وتعدل شالها الأسود حول رأسها، إلا أنها تترك متعمدة خصلة واحدة من شعرها المغسول والمسرح بعناية ظاهرة بإهمال من تحت حافة الشال، تلمع في الضوء فوق جبينها. مثل هذه الحركات ما كانت تقوم بها خارج البيت من قبل.

وتمر لحظات لايقول فيها أي واحد منهما شيئا. هو يتأملها بعمق وهي ترنو اليه ولاتتحاشى نظراته، وأنا بينهما أنقل بصري من وجه الى وجه دون أن يعبأ بوجودي. هذه الرسائل الصامتة، رسائل العيون التي يتبادلانها في حضوري تصيح بي " يا ساهرة، إن بينهما سرا مخزيا يخفيانه عنك !" لنا الآن اكثر من أسبوعين ونحن نتردد كل صباح على هذا المكان. أنا أنشغل في غرفة التشخيص ـ عندما يتيحون لي الفرصة ـ القناع الطبي يغطي نصف وجهي، أحدق بعيون ذاهلة في محتويات الصناديق التي يأتونني بها من داخل العنابر، الواحد بعد الآخر، (هذه المحتويات المتروكة التي لا يعرف لها أهل، والتي سوف تدفن في مقابر المجهولين خارج المدينة، بعد مضي شهر أو أربعين يوما على موعد وصولها، كما علمت بعد ذلك). في هذه الساعات التي لا أستطيع التفكير فيها بأى شيء آخر غير التمعن في داخل الصناديق بحثا عن سعيد، يأخذ منصور غانم فاتن الى غرفته، ويجعلها تنتظره هناك من أجل أن يقرأ لها بعد ذلك ـ حين يفرغ من عمله ـ القوائم الطويلة بالأسماء

بعد وصول كل وجبة جديدة. والله وحده يعلم ما الذى يقوله لها في هذه الأثناء، وأي كلام يدور بينهما، وحده الله يعلم. لذلك هي تتحدث معه الآن في ألفة.

"وماذا فعلتم !؟ "

حين يهم بالرد عليها يرن جرس التلفون. يرفع السماعة، ينهي المكالمة بسرعة، ثم يغلق الجهاز، غير أنه لايعيد السماعة الى مكانها بل يضعها فوق المكتب أمامه، فتبدو مثل عضو مبتور ومهمل، لا يربطه بجسد الجهاز غير عصب أسود نحيف يتلوى فوق خشب المكتب.

يرفع منصور عينيه اليها وقبل أن يجيب على سؤالها أتدخل أنا.

"أستاذ منصور، يجب أن تعذرنا. الأطفال ..!"

" دقائق، دقائق .. أرجوك ."

تستدير هي برأسها.

" نشرب الشاي بالأول، وبعدين نروح ."

يا لوقاحتها ! تتكلم كأنها في بيتها، ثم تنظر اليه، فيهصر عقب سيجارته، في المنفضة، وينفخ بعد ذلك على أطراف أصابعه، عيناه على وجهها المترقب.

" أصابتنا حالة من الفزع. هذا الصاروخ من الجائز ينفجر في أية لحظة !"

يلقي نظرة مهادنة، على وجهي، يحاول أن يشدني، الى حكايته، يحاول أن يروضني، ويجرني الى صفه. ثم يعود بانتباهه اليها.

"ماذا نفعل الآن !؟ وقفنا كلنا على مسافة من الجثة التي أنزلها الأفراد بحذر، ووضعوها على الأرض في مكان منعزل. وقفنا نحدق من

بعيد، نحدق في رهبة، الى تلك القطعة، من المعدن الأملس، المنحشرة في الجسد المتصلب. كيف قطعت كل هذا الطريق، في شاحنة تختض ولم ..!؟ شيء عجيب ! "

ترف ابتسامة على شفتيه، إلا أنها لا تبتسم هذه المرة بل تواصل الأصغاء مأخوذة.

غريب أمرها هذه المرأة، فقبل أسبوعين فقط ما كانت تقوى على النظر الى ما في داخل الصناديق، وهاهي الآن تستمع اليه يتحدث بمثل هذا الكلام دون أن تتأثر. فما الذي جرى لها !؟ وهو يبدو مغتبطا، يتمعن في وجهها المذهول، وأنا أتململ في مكاني، وأنظر الى باب الغرفة أنتظر وصول الشاي، من أجل أن ننتهي منه بسرعة وأنتزعها بعد ذلك من غرفته ونغادر.

" كانت الجثة تنطوي على نفسها ..هكذا !"

ويمثل أمامنا منصور غانم ـ بالقسم الظاهر، من جسده، فوق المكتب ـ الوضع الذي وجدوا عليه تلك الجثة المخترقة.

"مثل إناء من الصفيح كانت .. نعم، من الصفيح مخسوف من الوسط .. الركبتان مطويتان، مسحوبتان الى الأعلى، والرأس وأعلى الجذع ينحنيان صوب البطن، والفم مفتوح بهذا الشكل."

يفتح المساعد فمه، حتى أقصاه، ثم يطبقه، ويعاود الكلام.

"اليدان تمسكان بالنهاية البارزة من تلك القطعة المعدنية السوداء . لعله كان يحاول إخراجها من ثنايا اللحم، عندما فاجأه .."

يسمع طرقا خفيفا، على الباب. يهتف منصور بارتياح .

"هذا الشاي وصل! "

ويرنو الى الباب الموصد .

"ادخل."

يدخل أحد الأفراد يوزع عليهم (استكانات) الشاي، ثم يغادر الغرفة ويوصد الباب وراءه بهدوء.

"مدير المركز قال لي " اطلب جماعة الهندسة يخلصونا من هذا، قبل أن ينفجر ويقتلنا.

وليحملها الأفراد في هذه الأثناء ويضعوها في الخارج .. في أبعد مكان ."

" إذن أنتم تتعرضون للخطر هنا أيضا !"

" طبعا نتعرض. ماذا تظنين !؟"

ويختلط رنين الملاعق الصغيرة، تحرك الشاي في (الأستكانات) ، وأتناول رشفات سريعة من السائل الحار، في حين يواصل هو ثرثرته، من أجل احتجازها، في غرفته، وهي تساعده، إذ أراها ـ وأنا أشتعل ـ كيف تشرب شايها ببطء قاتل، في رشفات صغيرة، تتخللها فترات طويلة من السكون، و(استكانة) الشاي معلقة بين أصابعها، يدها تستريح على ركبتها.

" الخطر موجود دائما في هذا المكان. الأمراض أكثر من أي شيء آخر. ليست عندك .. ليست عندكما فكرة عن كميات الدود، التي تتساقط على الأرض، بعد افراغ كل شحنة. خصوصا اذا كان الجو حارا. ثم هذه الرائحة الكافرة !"

ترنو فاتن الى وجهه متعاطفة.

"الله يساعدكم. في الحقيقة أنا ما كنت .."

يبتسم ممتنا، وتلمع العيون. العيون تلمع، فألمس يدها.

" اشربي شايك بسرعة. تأخرنا."

ترفع يدها عن ركبتها، وترتشف جرعة صغيرة أخرى، دون أي شعور بالاستعجال.

" في احدى المرات .."

وتنشغل أصابعه بإخراج سيجارة ثانية من علبته.

" في احدى المرات وصلتنا شهادة ميدان، ومعها علبة كارتون صغيرة. أي والله ! علبة كارتون فيها شوية رماد. هذا هو كل شيء ، فالولد حاصرته النيران في الدبابة، وعندما تمكنوا من الوصول اليه، في اليوم التالي .."

تمر لحظات صمت لا يقول فيها أحد شيئا. يوقد هو سيجارته، ولاتكف عيونهما، في هذه الأثناء عن حديثها السري.

"أولادك يا امرأة !"

يتدخل منزعجا.

"لماذا أنت مستعجلة على الذهاب هكذا، آنسة ساهرة !؟"

"تعرف أستاذ، نحن كل يوم نترك الصغيرين، عند الجيران. يعني لا يجوز أن .."

" معك حق، ولكن نصف ساعة، أكثر أو أقل، لا تفرق كثيرا. جيرانكما يعرفون .."

" اصبري لحظة واحدة ونروح. لحظة واحدة ؟ "

ثم تلتفت اليه.

" وماذا فعلتم بالرماد !؟ "

أمعقول ما تفعله هذه العاهرة !؟

يبتسم مسرورا لتمردها على .

"وضعنا العلبة داخل علبة كارتون أكبر وأحطناها بمقدار من نشارة الخشب ثم أغلقناها. بعدين ووضعناها في صندوق كبير، حسب الأصول، وحشرنا قطعا من ألواح الخشب حولها، حتى لايبدو الصندوق خفيفا، بشكل غير معقول. وبعدين بسمرنا الغطاء باحكام وأرسلناه الى أهله ."

"ألم يخطر ببالكم أن أهله ربما فتحوا .. !؟ "

يدخن وينظراليها. (لعله يتخيلها عارية). يتجاهلني. يتجاهل رغبتي الملحة في الانصراف.

" اكيد. غير أننا لانترك المسألة هكذا، سائبة ..لا . في حالات من هذا القبيل نبعث بواحد من رجالنا مع الصندوق لينفرد بشخص كبير من العائلة، أو برجل وقور من الجيران ويشرح له الوضع. لايقول له كل شيء طبعا. هذا ما ممكن. إنما ينصحه بعدم الكشف عن.. حتى لا.."

هذه التفاصيل التي كنت أجهلها تجعلني أتحمل الجلوس، في غرفة المساعد، دقائق أخرى.

"وهل يصلكم رماد في علب دائما !؟ "

يضحك.

"أنت تسألين أسئلة مسلية ! "

يضع سيجارته على حافة المنفضة ويمد ذراعه الى الأمام فوق سطح المكتب ويلتقط باطراف أصابعه وريقات ذاوية فقدت لونها، وريقات تساقطت حول المزهرية من رؤوس الورود المائلة بانكسار صوب الأرض.

"هذا النوع من الورود ألوانه بديعة، وكذلك رائحته، عندما يكون على الشجيرات. عندنا منه في حديقة البيت. إلا أن عيبه أنه لا يعيش طويلا حين تقطعينه."

يضع الوريقات الملتوية على نفسها في المنفضة مع الرماد وأعقاب السيجائر. بعد ذلك يعتدل في جلسته، ويمرر راحته على شعر رأسه اللامع، ويسوي الخصل الصغيرة النافرة فوق أذنيه بعناية.

"حكاية الرماد هذه من الحالات النادرة طبعا. إلا أن هناك حالات أخرى..

حالات كثيرة لا ينبغي لعيون الأهل أن تقع عليها !"

ألا يفكر هذا الرجل بتأثير كلامه !؟ ولكن العاهرة لا تبدو منزعجة.

"ماذا تفعلان مثلا بثلاثة سيقان وذراع واحدة ولاشيء غيرها !؟ "

انهض من مكاني في تصميم. لا يجب الانتظار لحظة أخرى .

"هكذا بسرعة !"

"استاذ منصور أرجوك. تأخرنا كثيرا.. وهذا الكلام ! "

"أنا آسف جداً. حقيقة آسف. أني أنسى نفسي وأنا أتكلم. نحن هنا تعودنا على .. لذلك هذه المشاهد تبدو لنا.."

يبتسم لفاتن التي تتهيأ للنهوض متثاقلة.

"سامحيني اذا كنت .."

ثمه يد تفتح الباب بلا استئذان ويطل علينا وجه مدير المركز، يلوح عليه الأعياء .

يسارع المساعد برفع سماعة التلفون التي تركها مهملة فوق سطح المكتب، ويعيدها الى مكانها فوق الجهاز بيد مضطربة وهو يهب واقفا.

يتأملنا المدير، أنا وفاتن، بعدم ارتياح واضح، لوجودنا في غرفة المساعد في تلك اللحظة. ثم ينظر الى منصور غانم.

"أنا خارج الآن. عندي شغل."

" نعم سيدى."

" ساعة.. يمكن أقل، ما أعرف."

المساعد يقف وراء مكتبه ينظر الى رئيسه في ترقب. المدير يرنو الينا مرة أخرى، يريد أن يقول شيئا إلا أنه متردد. أشير برأسي الى فاتن بضرورة الخروج، غير أنها تتجاهل إشارتي وتظل واقفة في وسط الغرفة حقيبتها بين يديها وأنا أقف بجوارها أحاول أن الفت نظرها الى أن استمرار مكوثنا في الغرفة عمل غير لائق، ولكن بدون جدوى.

يتكلم المدير أخيرا."

"جائز الجماعة يتصلون. يسألون عن واردات البصل لهذا الأسبوع. قل لهم ان الكمية هي".. ويذكر رقما.

"أمرك سيدي."

ينصرف المدير وينغلق الباب، في حين ينتزع المساعد قلما، من الجيب الصغير، على جانب الذراع، ويكتب شيئا على ورقة فوق مكتبه، ثم ينظر إلينا في شرود. تسأله فاتن بصوت مندهش.

"أنتم تحتفظون عندكم هنا بالبصل أيضا !؟"

يفيق من شروده.

"نحتفظ بماذا !؟"

"بالبصل !؟ سمعت المدير يقول.."

يبتسم لها، ويتناول سيجارته.

"طبعا. ألا تشمين الرائحة !؟"

ترنو اليه في حيرة في البداية، ثم تلمع عيناها.

"آ.. فهمت!"

أجرها من ذراعها وأخرج بها. فيغادر مكتبه ويتبعنا.

"أشوفكما صباح الغد."

يلفنا الهواء الحار. أتريث قليلا، والتفت اليه.

"أستاذ منصور، لا أعتقد أن فاتن ستأتي الى هنا، مرة أخرى."

يلوح الانزعاج على وجهه. ينظر اليها.

"صحيح هذا الكلام !؟ "

تسألني مستنكرة.

"ولماذا لا أجيء معك !؟ أنا زوجته!"

"زوجة من؟"

"ما هذا السؤال !؟ "

"تمام، أنت زوجتـه، أو ربما أرملتـه. لاندري بعـد. مع ذلك أنا لا أريدك أن تجيئي معي الى هنا، مرة ثانية."

تتفاهم عيونهما. أستطيع أن أرى عيونهما تتفاهم. وأسمع صوته المستسلم.

"طيب. لتـأت من تريد، فـقط أعطيـاني عنوان البـيت، قـبل أن تنصرفا."

أنظر اليه بارتياب .

"ولماذا تريد العنوان !؟"

يبتسم بتسامح.

"أريده حتى اذا وصلت جثة المرحوم، ولا أحد منكما موجود هنا، أضعها أنا فوق سيارة، وأجيئكما بها الى البيت."

"أنت تأتي بها الى البيت بنفسك !؟ "

"أخت ساهرة، هذا واجبنا. نحن نفعل هذا، بين وقت وآخر .. عندما لا يأتي الأهل."

أنظر اليه مترددة، حائرة. لا أدري ماذا أصدق، في حين تسارع هي بذكر العنوان، وتصف الطريق، الذى يؤدي به الى بيتنا، وهي تماشيه متمهلة، متخلفين عني. التفت اليهما، لأضع حدا لكل هذا.

" في أمان الله أستاذ منصور."

واطبق كفي على يدها، وأبتعد بها عنه، أخيرا. أشعر به وراءنا، واقفا لايزال، في منتصف الممر، بين غرف الكتبة، يحدق قي ظهورنا المبتعدة، أو بالأحرى يحدق في ظهرها المبتعد.

وفور خروجنا من المجمع أنظر في عينيها اللتين زايلهما الذبول.

"فاتن قولي لي ماهذا الذي يجري بينك وبين المساعد !؟"

تتظاهر بالدهشة.

"ماذا تقصدين !؟ "

"تعرفين قصدي زين."

ترمقني بجرأة.

"لا ، ماأعرف. يعني أنت قصدك أني..!؟"

"إذن بماذا تفسرين سلوكك معه !؟"

"وكيف تريدين مني أن أتصرف !؟ الرجل، الله يرضى عليه، يحب يساعدنا."

"لماذا ؟؟"

"وهل يتوجب علينا أن نسأل الذين يساعدوننا لماذا تساعدوننا ؟؟"

أتوقف عن الكلام معها، فالطريق ليس المكان الملائم للنقاش في أمر كهذا. ولانتكلم أيضا داخل السيارة التي تقلنا الى البيت. نجلس صامتتين، في المقعد الخلفي، كل واحدة تجلس على جانب، تحدق الى الطريق من النافذة التي تجاورها، وفي هواء السيارة يتوتر بيننا حبل خفي من البغضاء والأرتياب، في حين تتخاطف المشاهد من حولنا في حياد، السيارات العابرة والمباني والأشجار والناس في حركتهم أو في سكونهم على الأرصفة وفي داخل المخازن والدكاكين. وفي البيت تنزوي في غرفتها وتأخذ بالنحيب، وهكذا تسد عليّ الطريق بالاختباء وراء دموعها. ولكنها لن تظل تخفي سرها عني الى الأبد. ترى ماالذي تخطط له هذه الفاحشة هي وذلك الملازم الفاسق ؟؟

١٩

يدق الجرس في المساء، يدق الجرس في نحو الثامنة من المساء. أفتح الباب. أرى منصور غانم واقفا على العتبة. يبدو مرتبكا. بجواره كان يقف مختار محلتنا ـ رجل وقور في نحو الستين من العمر ـ رأيته ينظر الى وجهي بعينين كسيرتين- وعلى بعد خمسة أو ستة أمتار، في العتمة خارج دائرة الضوء التي ينشرها مصباح الشارع، كانت تتوقف سيارة أجرة، على سطحها صندوق خشبي ملفوف بالغطاء المألوف، واللون الأبيض بين الألوان يقتحم العين بشراسة، و السائق يتحرك بجوار السيارة ذراعاه مرفوعتان، يداه تفكان الحبل المربوط حول الصندوق، مستغرقا في عمله. يصدمني المشهد. أحدق في ذهول الى ما يفعله السائق.

" ما هذا!؟"

" البقاء في حياتك بنتي!"

" مستحيل! هذا مستحيل! ما ممكن!"

" اذكري الله يا ابنتي! كلنا على هذا الطريق!"

أصرخ بوجهه "أي طريق!؟" وأحدق الى وجه الملازم منصورغير مصدقة.

"نحن كنا هناك اليوم! كنا هناك وأنت لم تخبرنا!"

"الجثة وصلت بعد انصرافكما. جاءت شحنة جديدة!"

وجهه جامد الملامح، وعيناه ..لا أعرف كيف أصف عينيه.

وتخرج فاتن. تسمع اللغط، عند الباب، وتخرج. وفور اكتشافها الصندوق المغطى

تطلق صرخة ملتاعة. ترتطم بالمختار، في اندفاعها المجنون نحو السيارة. ويفزع طفلها الأكبر الذي خرج يدرج وراءها ويأخذ بالبكاء. وتنفتح الأبواب ويتوافد الجيران، نساء ورجالا وصبية. ولا ألمح الطفل بعد ذلك. (لعل امرأة من الجيران أخذته هو والصغير الذي بقي في الداخل، وأبعدتهما عن الأرجل وعويل الأم) وانا أرقب ما يجري أمامي ذاهلة، لا أستطيع أن أصدق ماتراه عيناي، والرجال يتعاونون على حمل الصندوق الى داخل البيت، وفاتن تولول وتتعثر وراءهم، وثمة يد تقودني الى الداخل مع الداخلين من الجيران. أرى الصندوق الملفوف بالعلم الملون موضوعا على الأرض وسط الصالة، وفاتن تجثو بجانبه النصف الأعلى من جسدها يسقط متهافتا على خشب الصندوق، ذراعاها المشبوحتان تحتضنانه، رأسها بين ذراعيها، شعرها الأسود محلول فوق الغطاء، وصوتها النادب يردد اسم سعيد في ترنيمة لا تنقطع، والجارات يحاولن أن يخففن عنها، وأن ينهضنها من مكانها، وهي ملتصقة بالصندوق لا تريد أن تفارقه. ويحل صمت لا يقطعه غير نحيب فاتن وهذيانها الرتيب، والوجوه الحزينة تلتفت صوبي، والعيون تحدق الى وجهي وتحدق. أصيح:

"أريد أشوفه! لازم أشوفه!" أشق طريقي نحو التابوت. أشق طريقي

بين حركة الأجساد، ويتفجر اللغط مرة أخرى، بعضهم يؤيد، بعضهم يعارض، وأنا أقترب والملازم ينظرالى المختار، ينظر بإلحاح، فيتحرك الرجل المسن ويقطع عليّ الطريق.

"اذكري ربك يا ابنتي! أنت لست أول من فقد عزيزا! لا تعذبي نفسك و تعذبي زوجته بالكشف عن الجثة فهي ليست في وضع يسمح.. ماذا أقول يا جماعة الخير! أرجوكم عقلوها" ويعلو نواح فاتن أكثر من قبل، وهي لا تزال في مكانها على الأرض تحيط الصندوق بالجانب الأعلى من جسدها المتهافت. ويتدخل الجيران، كلمات تتوسل، وأخرى تؤيد المختار، وأياد نسائية تتشبث بي من كل جانب، تمنعني من رؤية ما في داخل الصندوق، تمنعني من رؤية حقيقة الأشياء. أتوجه الى منصورغانم.

"وكيف عرفت أنه هو!"

يخرج ورقة من جيبه.

"انظري! هذه شهادة الوفاة من الوحدة الطبية في الميدان!"

يبسط أمامي ورقة طويلة صفراء تتداخل فيها الحروف بالأرقام بالخطوط.

"ما أشوف اسمه! أين اسمه!؟ "

"هنا!"

واصبعه تشير.

"انظري هنا! في هذه الزواية"

يباغتني الأسم الأليف. تهتز أمامي حروفه المعروفة، فوق صفار تلك الورقة اللعينة. فهل تحقق موته!؟ أليس ثمة من أمل بعد! اذن لماذا لا

أشعر بذلك الوجع الداخلي! لماذا!؟ هل من يدلني على السبب! واللغط يتزايد من حولي، اللغط يتزايد والبيت يزدحم، ومنصورغانم يعطي الورقة الى المختار، ثم يدنو من الصندوق. يقف منتصبا بقامته الطويلة على بعد قليل من جسد فاتن الخائر، و طرف حذائه، يكاد يلامس ردفها المحشور في ثوبها الأسود والمنهصر على البساط. أسمعه يتكلم فوق رأسها، الا أنها لا تتحرك، ولا تنظر اليه، ولا تكف عن النحيب. يقول:

"معذورة! امرأة صغيرة تفقد زوجها، وهي في هذه السن!"

وينظرالى وجوه الجيران، ثم ينسل خارجا. أظل أقف بين الهياكل التي تلغط من حولي وأنا حائرة ومذهولة، ولكن بلا دموع، ليس من أثر للدموع في عيني. أسمع صوتا يقول:

"لوأنها تبكي! لو أنها تبكي قليلا!"

٢٠

" أنا روحي تعبانة، روحي تعبانة من كل هذا!" الكرسي الذى يجلس عليه الطبيب وراء المكتب فارغ الآن. الصوت يأتيه من زاوية أخرى. يستدير نحو مصدر الصوت، يده لا تزال على مقبض الباب الموارب، يقف مترددا.

"يبدو أنني جئت في وقت غير مناسب!"

يهم بالانسحاب.

"ادخل!"

في صوت الطبيب نبرة أمر. يتأمله مندهشا في رقدته الساكنة على الديوان ـ المكان الذى يتمدد عليه مرضاه في العادة، يحدثونه عن حياتهم المرة و انكساراتهم و مخاوفهم الغامضة و كوابيسهم المريعة ـ وجهه الخالي من العوينات في هذه اللحظة يلوح عاريا، أجفانه مطبقة، ذراعاه تتقاطعان على صدره، طرف سترته الكحلية يتهدل ساقطا على غطاء الديوان، قميصه الأبيض مفتوح الأزرار عند الصدر و نهاية القميص تبرز من البنطلون، رباط عنقه المحلول خط أزرق يتلوى فوق البطن المرتفع، ثم ينخفض الجسد، يتفرع في ساقين ناحلتين تختفيان تحت قماش البنطلون المتهافت، منفرجتين قليلا، لذلك فأن فردتي حذائه

الأسود اللامع في نهاية الجسد القصير ترسمان ما يشبه علامة نصر مفلوقة عند التقاء الكعبين.

لا بد من الدخول. يوصد الباب. يخطو الى الداخل ويجلس على مقعد بجوار مكتب الطبيب. سكون في الغرفة. وراء النافذة في الخارج فراغ معتم. في بناية بعيدة أضواء خلف ستائر في عدد من النوافذ المتجاورة. فوق زجاج المكتب المضاء بمصباح منضدي بغطاء أدكن يستقر جهاز التلفون صامتا. العوينات الطبية- التي تحرر منها الطبيب، بزجاجها السميك وعضديها المفتوحين فوق سطح المكتب، لها قوة حضور الدكتور محمود سالم. بوسعه أن يقول انها الدكتور نفسه نافضا عنه جسده- وتلك القصبة الصغيرة البيضاء ـ سيجارته الزائفة التي حدثته عنها زوجته ساهرة- تستلقي على حافة المنفضة الخالية من الرماد. و من صالة الانتظار تتناهى اليه همهمة المرضى خفيضة مبهمة، تتخللها بين وقت و آخر أصوات متفردة، عالية النبرة ـ جهشة طفل تهدهده أمه، سعلة رجل، سقوط شيء على الأرض، وقع أقدام تتحرك فوق بلاط الصالة، وما شابه. و الطبيب لا يزال على رقدته الساكنة على الديوان، وعلى وجهه ما يشبه الابتسامة الساهية، غير مكترث بمرورالزمن، والليل يتقدم حثيثا.

ينهض من مكانه.

"سأزورك في فرصة ثانية"

"اجلس. ليست هناك فرص ثانية!"

الطبيب يتكلم بدون أن يفتح عينيه أو يحرك رأسه. ساهرة على حق فالرجل غريب الأطوار، ان لم يكن مجنونا. يعود الى الجلوس، ويواصل الانتظار.

"تسمح لي أدخن؟"

لا يسمع جوابا. تمر دقائق، ثم يباغته صوت الدكتور سالم يتلو شعرا، يتلوه بصوت خفيض متأن، يقرأ لنفسه، شفتاه تتحركان، غير أن أجفانه لا تزال مطبقة.

"الم تسمع هذا من قبل؟"

يفتح عينيه أخيرا، ويجلس على الديوان. يترك قدميه تستقران على الأرض، و ينحني بجذعه نحوه، يداه تمسكان بحافة الديوان، كل يد على جانب من الجسد المنحني، ربطة عنقه تتهدل بين فخذيه.

"الشاعر الشهيد كان يتحدث عني أنا!

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له،

إياك إياك أن تبتل بالماء!"

ينهض و يواجهه، بهيئته المشوشة، و فوضى ثيابه.

"نعم. عني أنا، الدكتور محمود سالم!"

يشير بإصبعه الى صدره.

"أنا هو المقذوف في اليم مكتوفا!"

(يتأوه)

"هذا الشاعر الشهيد فتكوا به! قطعوه، و أحرقوه، ثم رموا برماده، في قبر قراره البحر!"

يدير وجهه ويذهب ليجلس وراء مكتبه. يضع عويناته فتتحدد شخصيته المهنية.

يأخذ قصبته البيضاء، غير أنه لايضع طرفها بين شفتيه. يظل ممسكا بها بين أصابعه.

"أنت عندك موعد!؟"

"طبعا دكتور، أنا..!"

"طيب، لا حاجة للشرح. ما ذا تريد مني!؟ لا أعتقد أنني أستطيع أن أساعدك، أو أساعد أي انسان آخر!"

"دكتور أنا جئتك من أجل شيئين!"

"جئت متأخرا!"

"ربما. في الحقيقة أنا تنتابني أحيانا حالة من الخوف لا أعرف لها سببا. هكذا بغتة يداهمني نوع من الخوف الحيواني، جسدي يرتعش و أتفصد عرقا! حالة محيرة!"

يصمت و ينتظر، والطبيب يجلس ساكنا، في كرسيه، يبتسم في شرود، و يحدق الى وجهه، بعينين فارغتين من أي احساس بالتعاطف أو الفهم.

"ظننت أن الحالة سوف تختفي، مع الأيام. هي بدأت عندي أيام الحرب، الحرب السابقة، بعد الحادث.. عندما كانت البصرة. قلت أرحل وأبدأ حياتي، في مكان آخر. ولكنك في الحقيقة لا تستطيع أن ترحل، مهما ابتعدت، في المسافة و الزمن. اكتشفت هذا فيما بعد."

الدكتور سالم يظل على صمته، يحدق الى وجهه بنظرات ساهمة.

"في بغداد تزوجت مرة أخرى من أجل أن يكون بجواري انسان أستمد منه العون، في مواجهة حالة الخوف الغريبة هذه. تزوجت امرأة عنيدة و صبورة، تعرفت عليها بالمصادفة. جنابك شفتها، هي تأتيك مع أخيها سعيد، غير أني لم أخبرها بحالتي. خجلت.

ماذا أقول لها !؟"

لا يعلق الدكتور محمود سالم بشيء على التساؤل الحائر.

"حين عرضت عليها الزواج اشترطت ألا ألمسها، حتى يشفى أخوها (هي تدعوه ابنها لأنها ربته منذ كان صغيرا) شرط غريب طبعا. المهم أنني وافقت و بقيت وفيا لعهدي.

ما كان الجنس هدفي الأساس من هذا الزواج. أردت أن أستعيد دفء البيت الذي فقدته بعد القصف."

مع ذلك فإن زواجا بدون جنس هو..والمسألة طالت. ثلاثة شهور الآن، و هي تبتعد عني بجسدها، ولا أدري متى يشفى أخوها، و ان كان سيشفى أم لا!"

"عندما تنزل في بلاليع المجاري فأنك تتوسخ جسدا و روحا!"

يتكلم الدكتور سالم بعد الصمت الطويل، و يتابع قائلا:

"وأنا أدخلها كل يوم. سنوات و سنوات و أنا انزل فيها، كل يوم، باستثناء أيام الجمع، والعطل طبعا..كل يوم، فهم يقصدونني من كل مكان من البلد، يأتون من الجنوب، يأتون من الشمال، يأتون من الوسط، و يلقون بثقل عذاباتهم، و أحزانهم، على صدري!"

(يشير بيده، الى لحم صدره، الظاهر من بين زيق القميص المفتوح الأزرار.)

"يظنونني المسيح بن مريم! وهكذا تدمرت روحي!"

(يرفع يده بسيجارته الزائفة، الا أنه ينتفض و يبعدها عن شفتيه.)

"لا، لن أخدع نفسي بعد الآن!"

(يهصر سيجارته، بين أصابعه، فيتساقط على سطح المكتب ما يشبه نشارة الخشب الصفراء الباهتة. يرمي ما يتبقى منها، في راحته، في منفضة الرماد.)

"نسيبك هذا، الذي اسمه سعيد أنا حاولت أن أمسك بيده، و أدخل معه الى بالوعة حياته لنتعرف نحن الأثنين على البؤر التي يتصاعد منها ذلك البخار القاتم فراح يروي لي حكايات لا أعرف ما ذا أصدق منها. أنا أعرف أنهم يكذبون في كثير من الأحيان..

يكذبون على أنفسهم بالدرجة الأولى هربا من مواجهة الحقائق المرعبة أو المشينة.

ولكن نسيبك هذا! الحاصل، لم أشأ إرساله الى طبيب آخر يعالجه بالكهرباء إذ يبدو أنهم أخضعوه لهذا النوع من العلاج الوحشي، في مكان آخر!"

"والعمل دكتور!؟"

"خذوه الى واحد من هؤلاء الذين يعاشرون الجن والملائكة، يخط له حجابا يربطه حول زنده، ربما نفعه ذلك. لا أدري، أنا ما عدت أدري!

لا يمكن أن يكون هذا الرجل جادا !

"وماذا عن حالتي أنا ؟"

"أنت أيضا اذهب الى أي شخص آخر. قل له انك تصاب بنوبات من الهلع، و سيكتب لك شيئا فأنت لست مريضا انما.."

"انما ماذا !؟ "

يهز الدكتور محمود سالم يده بعدم اكتراث.

"لا شيء."

"ألا تعالجني أنت !؟"

"أنا أغلقت العيادة."

ينهض و يخلع سترته.

"الحر فظيع، والطيور تموت من العطش، هذه الأيام!"

يطوح بسترته في الهواء، فتنتفخ مثل مظلة، وهي تحلق، في سماء الغرفة، وتتساقط من جيوبها قطع نقود، وبطاقات صغيرة وأقلام، وتحط السترة على الديوان.

"اسمع كلمتي الأخيرة أيها الرجل. زوجتك العذراء نذرت نفسها للمعذبين في الأرض.

فاكشف لها عن سرك. لا تقاطعني. اكشف لها عن سرك، و سوف تسمح لك بأن تضاجعها كل ليلة!"

يحرر عنقه، من الرباط الأزرق المتهدل، في غير نظام، و يرمي به على الأرض، بجوار المكتب، و يظل واقفا.

"اذن فسعيد لا علاج له عندك!؟"

"لا أحد له علاج عندي! الدكتور محمود سالم انتهى، و ليرحمه الله ويطهر روحه من أوساخ البشر!"

يخلع عويناته، و يرمي بها، على سطح المكتب.

"تشوف هذا الدولاب؟ ما عاد في أدراجه متسع لمريض جديد. المرضى يملؤون الأرض والسماء، و يحاصرونني. تصور أنهم ينامون بيني وبين زوجتي على السرير، يجلسون معنا، على مائدة الطعام، يذهبون معي الى النادي، يمشون معي في الطريق، يزاحمونني داخل السيارة، و يسدون على المنافذ، عيونهم تلاحقني عيونهم تسائلني وتستنجد. هؤلاء المرضى جعلوا نهاري شقاء متصلا، و ليلي كوابيس مريعة! أنا تعبت، وقلبي خلص!"

"سلامة قلبك دكتور، ولكن.."

"شوف!"

يشير مرة أخرى الى صدره.

"لا يوجد هنا غير رماد الحرائق.. قصدي في الداخل!"

"دكتور لماذا لا تذهب الى البيت ترتاح. اذا أحببت أستطيع أن.."

"في أول يوم جاءت فيه زوجتك بأخيها سعيد طلب مني علبة ثقاب. أعطيته. أتعرف ماذا فعل!؟ أشعل عودا وأحرقني. تلك كانت إشارة لم أفطن لها. كان ينبغي علي أن أغلق عيادتي، في اللحظة التي أحرقني فيها سعيد، غير أنني تغابيت، فنحن دائما نغمض أعيننا عن الإشارات الواضحة. قلت لنفسي، مع مزيد من الصبر، مزيد من الإحتمال، ربما في النهاية، من يدري!"

تتحرك يده فوق سطح المكتب، تعثر أصابعه على علبة ثقاب يخرج منها عودا يشعله ويرفعه أمام وجهه يتأمل اللهبة الصغيرة المتأرجحة.

"كل هذه القذارات وأسبابها يجب أن تحرق! في السنوات الأخيرة غدت عذاباتهم لا تحتمل!"

تلسع النار النازلة من رأس العود أطراف أصابعه فيترك العود المشتعل يسقط من يده ويغادر المكتب، يمشي الى الخزانة الحديدية في ركن الغرفة، يسحب الدرج الأعلى ويخرج ما فيه من أشرطة مسجلة و بطاقات مختلفة الألوان ـ لعل هذه الألوان هي دلالات على مدى استفحال المرض في كل حالة. يرمي بالأشرطة والبطاقات على الأرض ويزفر متبرما يداه تعملان على اخراج المزيد منها و القائه على الأرض، وصوته يردد" ألقاه في اليم مكتوفا وقال له اياك اياك أن تبتل..!" يداه تقتحمان درجا آخر، تفعلان الشيء نفسه.

"حكاياهم أسقمتني، وفي النهاية ضيعتني! الأشرطة والبطاقات تسقط على الأرض كيفما اتفق الأشرطة بأغلفتها تهوي سريعا، تند عنها أصوات ارتطامات صغيرة، في حين تتراكم البطاقات، بلا ضجيج، تترنح في الهواء قليلا، بألوانها المختلفة ثم تحط بهدوء، بعضها فوق بعض.

"لن يستعبدني هؤلاء الضائعون مرة ثانية!"

اليدان المضطربتان، المتعجلتان، تفتحان درجا ثالثا.

"كل هذا النواح العقيم! كل هذا الأنين سأحرقه الأن!"

تلمع حبات من العرق، على وجهه، ورقبته.

"في البداية أبول على أحزانهم، وبعد ذلك أشعل فيها النيران!"

يضحك مسرورا للفكرة.

"اسمح لي دكتور! سأدعو زوجتك!"

"قف مكانك! لا تتحرك!"

يلقي بالمزيد، من اعترافات مرضاه، على الأرض.

"تعرف أنني أحسد زوجتي، فهي بعد أن تنتهي، من فحص مرضاها، تغسل يديها بالماء والصابون، ثم تعود الى البيت، وتنسى كل شيء. أما أنا فبماذا أغسل روحي!؟ قل لي بأي صابون أغسل روحي!؟"

تنتهي يداه من عملهما في افراغ الأدراج كلها. يقف منتصبا في مواجهة تل الأسرار ويفتح أزرار بنطلونه.

"دكتور، أرجوك لا تتسرع!"

"لا تقترب لأني سأرشك معهم!"

"اسمح لي أصحبك الى غرفة زوجتك تستريح عندها"

يزعق غاضبا:

"لا تكلمني بهذه اللهجة فأنا لست مجنونا!"

"العفو دكتور، ولكن..!"

"ولا كلمة! لا تتدخل في ما لا يعنيك!"

يستل عضوه، و يبول على أحزان مرضاه ، وهو يدور حول التل الصغير، كي يرشهم من كل جانب، و يضحك متشفيا. في دورانه يدوس على البطاقات و الأشرطة الساقطة أسفل التل فتتكسر الأشرطة تحت قدميه، و تختلط أصوات تكسرها بوقع الرذاذ بضحكاته الجذلة، حتى ينتهي خزينه من الماء.

"والآن سأضع فوقهم أوراقا يابسة نظيفة، وبطاقات لم تتسخ بعد، وأشعل فيهم النار!"

عندئذ ينفلت هو من غرفة الطبيب مسرعا، ليقتحم على زوجته عيادتها، و يخبرها بما يعتزم زوجها أن يفعل، قبل أن يشعل الدكتور حريقه!

٢١

الليل والنهر والسكون وراء النافذة، فالمدينة لا تزال تنام ـ أو تخنس ـ مبكرة، وهو يقف وحيداً بملابسه الداخلية بسبب الحر، يدخن سيجارته يستقبل هواء النهر بوجهه وصدره العاري. ساهرة ذهبت مثل كل ليلة تطمئن على أخيها حتى يهجع في فراشه، وعندئذ تترك أخاها و تنسل عائدة. وهو ما عاد يعرف كيف سينتهي كل هذا بعد أن شهد بعينيه أنهيار الطبيب المعالج الذي كانا يضعان أملهما فيه. لم يخبرها بعد بانهيار الطبيب وجنونه. أراد قبل ذلك أن يجد حلا آخر، عيناها في هذه الأثناء تتساءلان وتنتظران.

تهدر سيارة واحدة فوق الجسر الحديدي و تدوي طلقة في مكان ما من المدينة، ويمر طائر ليلي فوق النهر، يسمع صيحته الجزعة وهو يبتعد محلقا في الظلمة، ثم يتلاشى الصوت ويلفه الصمت مرة أخرى، و السيجارة تحرق نفسها بين أصابعه. وينفتح باب الغرفة وراء ظهره أخيرا فيترك النافذة و يمضي ليلتقي زوجته. ترى السؤال المألوف في عينيه فتزفر في يأس.

" نعم، رأيته يغفو."

يطفىء عقب سيجارته في المنفضة و تطفىء هي مصباح الغرفة، ثم

تشعل مصباحا صغيرا يضيء الغرفة بنور خافت أزرق، و تصعد الى السرير. يستلقيان على الفراش كل واحد منهما في أخدوده الخاص، و بينهما يتمدد ذلك الفراغ الذي أصبح مع الأيام مثل جدار حقيقي غير قابل للاختراق. يظل مترددا لا يدري من أين يبدأ معها، يسمع صوتها يبادره.

"ماجد أنت وعدتني أن تذهب لتقابل الدكتور."

"ذهبت."

"متى!؟ "

"قبل يومين."

ترفع الجزء الأعلى من جذعها، عن الفراش، و تستند على مرفقها، واضعة خدها على راحة يدها. تنظر اليه مندهشة.

"ولكنك لم تخبرني!"

"أردت في البداية أن أعثر على بديل."

"إذن تأكدت من أن الرجل غريب الأطوار."

"هو غريب الأطوار فعلا"

تبتسم منتصرة.

"ألم أقل لك!؟ أنا عرفت ذلك من أول يوم!"

ينظر اليها صامتا.

"وهل سألت لنا عن طبيب آخر ؟ "

يتأمل وجهها المنحني، على وجهه، و عينيها المترقبتين.

"أرشدوني الى طبيب معروف. رجل عجوز في الحقيقة، غير أن الناس يقولون انه يصنع المعجزات."

تتطلع اليه بامتنان، حتى أنه يظن أنها سوف تحطم جدارها الوهمي و تقبله.

"ومتى تأخذ سعيد اليه !؟ "

"حالما أرتب موعدا معه."

ويبتسم لها، ليهدىء من لهفتها و حماسها. تسقط يدها عن خدها، و تريح رأسها على الوسادة.

"اذن يقولون انه يصنع المعجزات هذا الطبيب الآخر !؟ "

"هذا ما يقولون."

"وهذا ما نحتاج اليه نحن. معجزة !"

يرنو اليها في أسى.

"معك حق يا عزيزتي."

يبقى مترددا لحظات، ثم يضيف متجنبا النظر اليها.

"ربما كلمته عن حالتي، أنا أيضا."

تنتفض جالسة على الفراش.

"حالتك أنت !؟ وماذا بك أنت !؟ قل لي!"

"لا تنزعجي أرجوك، فأنا لست.."

"ولماذا أخفيت عني أنك..!؟"

"اهدئي فأنا لست مريضا. كل ما في الأمر هو.."

ترنو اليه في عتاب.

"زوجتك و تخفي عني!"

"هي حالة بسيطة. نوبات عابرة من الهلع."

"نوبات من ماذا !؟ "

"على كل حال ليس هذا هو موضوعنا الآن. يجب أن نفكر بأخيك سعيد."

"وبك أيضا. بك أنت أيضا !"

تخترق جدارها الوهمي، وتزحف بجسدها نحوه. تضع راحتها الدافئة على خده، وهي لا تزال جالسة على الفراش.

"إذن فهذه النوبات الغريبة، التي تأتيك، بين وقت وآخر..الرجفة والعرق هي..!"

"ليست مرضا صدقيني."

"وأنا غافلة عنك كل هذه الشهور! يالي من انسانة ناكرة للجميل!"

تتمدد على الفراش، بين المنخفضين، في المكان، الذى ظل خاليا، طوال هذه المدة، ويدها لا تزال تلامس وجهه. يبقي صامتا، مندهشا. ما كان يريد أن تجري الأمور بهذا الشكل. كان يتمنى أن ينال منها حبا خالصا، لا عطفا على مريض. تكلمه برقة.

"لماذا تنام هكذا بعيدا عني!؟"

تترك جسدها ينزلق في المنخفض الضيق بجواره، فيشعر بليونة نهديها على صدره، وبأنفاسها على وجهه، ويحس بمنحنيات جسدها الطويل تلامس مواضع عديدة من جسده. يرفع يدا مترددة ويضعها على خاصرتها الهابطة فلا تعترض، غير أن ما يشبه الحركة الخفيفة وراء الباب تجعله يسحب يده سريعا.

"هل نام أخوك حقا !؟ "

"تركته نائما، لكنك تعرف. ربما خرج يحاور أشباح الليل مثل كل مرة"

"وهل تظنين أنه يتلصص علينا من وراء الباب؟"

"لا. سعيد لن يفعل هذا"

يتأمل وجهها المستريح على الوسادة، قريبا من وجهه- أول مرة تشاركه النوم على وسادة واحدة. رآها تبتسم.

"لكن ما الذي يجعلك تظن أنه يتلصص علينا!؟

"لا أدري. أشعر أحيانا كأن يدا تتحسس خشب الباب الموصد مترددة، ويداخلني خوف من أن يقتحم أخوك علينا الغرفة، في أية لحظة، فهو يكرهني ولا يطيق رؤيتك معي على فراش واحد!"

تضحك من مخاوفه. تقرب وجهها من وجهه، و تقبله في فورة من حب لم تكشف له عنه من قبل.

"قل لي ماجد، هذه النوبات التي تحدثت عنها، منذ متى تأتيك!؟ "

يتمنى لو أنها تشغل نفسها به، هو، لا بمرضه.

"لا تشغلي بالك!"

"وهل أخبرت هذا الطبيب المخبول عنها ؟ "

يتذكر ما فعله الطبيب ويضحك.

"هل أخبرته !؟ "

"نعم. لكنه كان قد بدأ ينهار فلم يفدني بشيء"

"إن إهمالك لنفسك يقلقني"

تنظر إليه بحنان، وتلتصق به أكثر. أخيرا تبدو مستعدة أن تمنحه جسدها.

"عدني بألا تهمل نفسك بعد الآن!"

يرفع يده عن خاصرتها و يتحسس خدها الدفيء بأصابعه المشتعلة.

"قلت لك انني لست مريضا فلا تحملي همي."

"كيف لا أحمل همك وأنت..!؟ "

يحيطها بذراعه، و يرى اشتعال الرغبة في لمعان عينيها. أول مرة يرى تلك النظرة الولهى في عينيها، وهي تنظر إليه في مزيج من التوجس والانتظار. ينبغي أن يكون حذرا معها، فهي ليست مثل أية امرأة أخرى. يرفع يده عن خدها ويضعها على مرتفع فخذها.. يضعها مترددا، ثم يتركها ساكنة في مكانها. ترنو إليه في حياء، ثم تغمض عينيها ولا تتكلم. يمر الوقت وهما يرقدان هكذا متلاصقين، يده على مرتفع فخذها، وعيناها مغمضتان، كأنها نائمة تنتظر وجلة. عندما يحرك يده أخيرا يتصلب جسدها. تفتح عينين مفزوعتين، ثم تنتفض جالسة في الفراش. حركتها المباغتة، تجعله يجلس هو أيضا. يتأملها حائرا.

"ماذا حدث !؟ لماذا!؟"

"أشم رائحة حريق..كأنه عند الجيران!"

يتشمم الهواء ثم يقول.

" معك حق. الرائحة قوية. كأن المدينة كلها تشتعل!"

ينزل عن فراشه ويذهب إلى النافذة. لكنها لا تنتظر. تقفز عن السرير، تفتح الباب وتركض إلى غرفة ابنها. ترى فراشه خاليا، وباب الدار مشرعا، وأضواء الحرائق تنير سماء المدينة!

بغداد -٧ أيار، ١٩٩١

٥ ك الثاني ١٩٩٢

كتب للمؤلف

المنشور منها:

مجرمون طيبون: قصص ١٩٥٤ منشورات أسرة الفن المعاصر-بغداد.

غضب المدينة: قصص ١٩٦٠ منشورات الثقافة الجديدة -بغداد.

حيرة سيدة عجوز: قصص ١٩٨٦ منشورات مطبعة عشتار-بغداد.

أجراس: (مختارات): قصص ١٩٩١ دار الشؤون الثقافية-بغداد.

أشواق طائر الليل: رواية ١٩٩٥ دار الشؤون الثقافية -بغداد.

صراخ النوارس: رواية ١٩٩٧ دار الآداب- بيروت.

الشاطىء الثاني: رواية ١٩٩٨ دار المدى - دمشق.

رياح شرقية رياح غربية: رواية ١٩٩٨ دار عشتار- القاهرة.

شتاء بلا مطر: قصص ٢٠٠٠ اتحاد الكتاب العرب- دمشق.

شواطىء الشوق: قصص ٢٠٠١ دار الشؤون الثقافية-بغداد.

وجع الكتابة: مذكرات ويوميات ٢٠٠١ دار الشؤون الثقافية - بغداد.

امرأة الغائب: رواية ٢٠٠٤ دار المدى - دمشق.

المخطوطات:

حكاية مدينة: رواية.

ينبغي أن يكون حذرا معها، فهي ليست مثل أية امرأة أخرى. يرفع يده عن خدها ويضعها على مرتفع فخذها.. يضعها مترددا، ثم يتركها ساكنة في مكانها. ترنو إليه في حياء، ثم تغمض عينيها ولا تتكلم. يمر الوقت وهما يرقدان هكذا متلاصقين، يده على مرتفع فخذها، وعيناها مغمضتان، كأنها نائمة تنتظر وجلة. عندما يحرك يده أخيرا يتصلب جسدها. تفتح عينين مفزوعتين، ثم تنتفض جالسة في الفراش. حركتها المباغتة، تجعله يجلس هو أيضا. يتأملها حائرا.

"ماذا حدث !؟ لماذا!؟"

"أشم رائحة حريق..كأنه عند الجيران!"

يتشمم الهواء ثم يقول.

" معك حق. الرائحة قوية. كأن المدينة كلها تشتعل!"

ISBN:2-84305-798-X

5537